

القسم الأول

١ - تأملات قبل الرحلة

قبل الرحلة:

كنت قد يأسست طويلاً من طلبات الحج التي تقدمت بها إلى جهات كثيرة رسمية وغير رسمية ، إذ كانت الإجابة دائماً : لم يصبه الدور . . وكانت لهفة زوجتي - للحق - أكثر منى ، وبشكل أدق ، كانت لهفتها تلقى فى تيار الذهاب إلى الأراضى المقدسة بباعث روحى محض ، فى حين كنت أضيف إلى الباعث الدينى باعثاً آخر ، ينطلق من تكوينى الذاتى الذى يقوم على الوعى الذى أتعامل به فى كل شىء .

لم تكن رغبتى تخلو من الباعث الروحى إذا ﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ (آل عمران - ٩٧) ، غير أن رغبة أخرى كانت تسيطر علىّ ، وهى تنطلق من أن هذه الرحلة وإن تكن للديار المقدسة ، فسوف أحاول فيها أن أعبر عن ذاتى ، فالرحلة تُعبّر - كما أعتقد - عن الوعى الثقافى الذاتى أكثر مما تعبر عن الواقع « الطبوغرافى » .

الكتابة هنا تعبر عن الداخلى ، أكثر مما تعبر عن الخارج .

تعبر عن المشاعر والكوا من داخل النفس البشرية (كما هى) ، أكثر مما تعبر عن المراتب والأحداث والمشاهد المكانية وحتى الجغرافية والجيولوجية بأية حال . .

إن الرحلة تبدو أقرب إلى السيرة الذاتية لولا أنها تبغى الانسياح فى بلاد الله لفهم هذه العوالم من خلقه ، وهو فهم ينطلق - فى الأساس الأول - من العالم الجوانى للكاتب وتكوينه ؛ « فالرحلة ليست غير أنباء عن ذهنية الرحّالة وتصوير لمكونات « الوعى الثقافى » عنده أكثر مما هى حديث عن البلد ، موضع المشاهدة أو أخبار عن القوم أهل البلد أو الإقليم موضوع الزيارة . ينطبق على الرحلة ، إلى حد بعيداً على حد تعبير البعض . وثمة تعبير فرنسى قديم يذكر هنا للتدليل على هذه الحالة ، فحين

يشير البعض إلى الحانات الإسبانية ، يرى أن المرء لا يرى فيها إلا ما يكون هو نفسه قد حملة إليها .

ونعتذر سلفاً عن هذا التعبير في هذا المقام ، لولا أنه يعبر عن الفكر المجازي ، وليس الرحلة بمعناها المعاصر . عن هذه الحالة بالفعل أحاول أن أعبر هنا عن ما أحست به من الانتقاء من المشاهدة ، أو مما انفعلت به من الرحلة ؛ وهى رحلة كانت تقوم - بالتبعية - على الواقع الذى وجدت نفسى فيه ، وهو الواقع العربى الإسلامى أو الإسلامى العربى ، الذى عثرت عليه فى هذا الخضم الهائل أثناء رحلة الحج .

وهذا بالضبط ما وجدته فى كثير من البلاد العربية والغربية التى ذهبت إليها . .
الذات والبحث عن المعرفة كانا ما يسيطران على . .

معنى هذا أن الرحلة لا تعبر عن الذات وحسب ، وإنما هى - كذلك - للبحث عن استكمال المعرفة وتنقيحها عبر الرؤية المباشرة ، وفى رحلة إلى الحج ، فإن هذه المعرفة تتمد علاقاتها من طبيعة هذه الرحلة بوجه خاص ، بل إن الرحلة - وهذه رحلة غير عادية - من المؤكد أنها تصقل معرفة الإنسان ، خاصة ، مع توالى السنين وتراكم الأحداث . .

إن العقل الواعى هنا يصبح أكثر وعياً برحلة كهذه ، وهو ما تذكرت معه اعترافات طه حسين حين قدر له أن يزور الأماكن المقدسة فى رحلة حج فى منتصف الخمسينيات ، فحين وجهت إليه الأسئلة لتكشف عن شعوره بعد ما ناله من سوء الفهم بعد كتابه (عن الشعر الجاهلى) ، قال بالحرف الواحد :

- لقد سبق أن عشتُ بفكرى وقلبى فى هذه الأماكن المقدسة زهاءَ عشرين عاماً ، منذ بدأت أكتب « على هامش السيرة » حتى الآن .

ولما زرت مكة والمدينة أحست أنى أعيش بفكرى وقلبى وجسدى جميعاً ، عشت بعقلى الباطن ، وعقلى الواعى . . . استعدت كل ذكرياتى القديمة ، ومنها ما هو من صميم التاريخ ، ومنها ما هو من صميم العقيدة . وحين سأله محاوره عما ذهب إليه فى هذا الشعور ، أجاب فى ابتسامة لها معنى :

(- . . لم أصل إلى درجة انجذاب . . كنت دائماً فى كامل وعيى . . (و) . .

لقد زرت هذه المناطق مرة واحدة ، وكنت فى هذه المرة الواحدة مع الناس ومع نفسى فى وقت معاً (عاد السائل يلح عليه ، كيف عاش الحاليتين ، بينما كان المطوفون يحاصرونه ؟ فأجاب :

(- كنت شخصيتين : شخصية واعية بلا كلام ، وشخصية متكلمة بلا وعى) .

وهذا هو المعنى الذى لم يفارقنى طيلة هذه الرحلة التى سبقتها رحلات (عمرة) كثيرة ، ورحلات (مشاركة) فى مؤتمرات كثيرة فى أنحاء المملكة ، كنت أسعى فى كل مرة فيها أن أكون زائراً لهذه الأماكن المقدسة وإن لم يكن فى وقت الحج ، وإن لم أفقد أبداً فى كل الحالات هذا الوعي الكامل مع نفسى ومع الناس . وهو وعى مرتبط بالمعرفة فى أحد نواحيه الملحوظة .

وهذا المعنى واحد من معان أو أنواع كثيرة معروفة فى التراث العربى أشار إليها كثيرون من دارسى الرحلة فى تاريخنا .
والرحلات - كما أشرنا - أنواع كثيرة .

وقد يكون من المهم هنا أن نشير إلى بعضها ، قبل أن نتمهل عند الرحلة التى أثرناها هنا ؛ فقد عرفنا من الرحلات فى التاريخ العربى أنواعاً كثيرة ، ومن الرحلات الغربية (بالنسبة إلينا رحلة واحدة) عرفنا دافع الرحلة عندنا فى التاريخ أو التراث الإسلامى رحلة التزود بالعلم - ولدينا أمثلة كثيرة لهذا . وعرفنا رحلة التجارة التى كانت تجوب الأقطار هنا وهناك لتعود إلينا بحكايات وروايات كثيرة ، عرفناها عند ابن بطوطة وقبلها بقرون عرفناها فى أمثلة كثيرة فى قصص (ألف ليلة وليلة) . .

ويقول لنا التاريخ إن هناك الرحلة الإدارية التى تعمل « لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجى » .

وهناك - على الجانب الآخر - هذه الرحلة التى أولتها الدول الغربية عناية كبيرة ، ومع إننا كنا موضوع الرحلة ، فإننا عرفناها على اعتبار أن صاحب الرحلة سجلها فى كتاب ، وكان الغرض منها - بناءً على تكليف بلد صاحب الرحلة - تعرف ما يدور هنا

فى بلادنا ، ومن هؤلاء خرج الرحالة الإنجليز من الهند - حين كانت مستعمرة - ومن وزارة الخارجية البريطانية ثم من ألمانيا وفرنسا . . إلى آخر هذه الرحلات . غير أن رحلة (الحج) كانت إحدى أهم الرحلات التى تقوم بوازع دينى ، فالحج - كما نعرف - فريضة واجبة ، والطريق - كما عرفناه أيضاً كان يستغرق من الشهور إلى السنين إلى السنوات قديماً لبعده المسافات .

والمعروف أن الرحلة اعتباراً من القرن السادس الميلادى (العاشر الميلادى) اتخذت آماداً ومساحات بعيدة ، ومن ثم تعرّفنا الرحلات التى لم تعد غريبة بيننا الآن ، ثم هناك الرحلة إلى الحج ، وهو ما نصل إليه هنا .

غير أن رحلة الحج بالنسبة لى كانت تجمع بين الوازع الروحى والمعرفة ، وقد يرى البعض أن العنصرين - الدينى والمعرفى - لا يلتقيان ، غير أن الرحلات القديمة فى عالمنا فى الشرق كانت تشير إلى نجاح هذه الرحلة ، وربما تتفوق فى حصاها الأخير على الرحلة الأولى ، فالمعروف أن الرحلة قديماً فى عالمنا الإسلامى التى تبدأ بهدف الحج تكون - فى الوقت نفسه - لتعرف العلماء والاقتراب من الزهاد ، وتعرف البلاد ، وربما كانت فى وجه آخر من وجوها « من أجل الوقوف على قطب صوفى أو سعى إلى (لبس الخرفة) منه أو الظفر منه بالإذن فى السياحة الصوفية » . .

كل هذا قد لا يرضى البعض الآن .

ولطالما سمعت - وأنا أحفظه عن ظهر قلب قبل أن أسمعه - أن الحاج لابد وأن يذهب إلى الديار المقدسة ، ويعود ، فإذا هو (لم يفسق) - على حدّ قول الرسول الكريم - ﷺ - ويعود « كيوم ولدته أمه » ، أو ممن أوغل فى السلفية (أسارع بالقول أن هناك سلفية واعية عاقلة) فإذا هو لا يرى من الرحلة غير ما سمعه من العامة وما هو مألوف ؛ ومع هذا كله فإننى أؤكد أننى لم أرتكب معصية منذ عدت - ولا قبلها كما أزعم - بل على العكس أقبل على كل الآيات القرآنية التى تدعو إلى التدبر والنظر ، والسير فى الأرض ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت - ٢٠) ، ثم حثّ على رؤية آيات الله فى الأفاق وفى

أنفسهم ، وتشير إلى العقل وإلى القلب (= مساوياً للعقل ومعبراً عنه) ، وغيرها من الآيات التي تسعى إلى المعرفة في وجود الوعي الديني المعاصر الذي يسهم في عيشنا في حقبة خطيرة من تاريخنا العربي ، وتاريخنا الغربي أيضاً ، فنحن - شئنا أم أبينا - نعيش في التاريخ الغربي الآن .

إنه طلب تعرف الواقع والاقتراب منه والانطلاق منه إلى التغيير .

وهو في جميع الأحوال في طلب المعرفة ، معرفة العوائد ، ومعرفة الأحداث ، ومعرفة (الآخر) أحياناً وهو ما كنا نسعى إليه في هذه الرحلة ، خاصةً ، وإن كاتب هذه السطور ، لم يستطع منذ نعومة أظافره فصل نفسه قط عما يحدث في - أو عن - عالمنا الإسلامي فضلاً عن العربي ، لم يستطع أن ينظر من بعيد لهذا العالم الذي أصبح في (موقع) و (موضع) لم يقترب فيه من الغرب ؛ بل على العكس ، كان على الغرب أن يمارس هيئته بشراسة وعنف ودموية منذ القرن الخامس عشر الميلادي - على وجه التقريب - سواء منذ عرفنا الاستعمار مرتبطاً بالتجارة أو منفصلاً عنها ، وصولاً إلى (العولمة) مرتبطاً بتجارة الشركات المتعددة الجنسيات وأخواتها مما عرفناه في بداية القرن الواحد والعشرين . .

فلنعد إلى الرحلة مرة أخرى .

كانت هذه مناسبة طيبة - إذاً - لأعرف ما يدور في الطريق إلى جدة ، ثم في الطريق إلى الحجاز بمدنه وقراه - وقبل هذا وبعده - بالمقبلين إليه من حجاج العالم كله ، الذين زاد عددهم هذا العام بشكل يمكن أن نذكر بتواضع أنه جاوز الثلاثة ملايين حاج يمثلون - كما سنرى - أكثر من أربعة مليارات ونصف المليار مسلم في العالم كله .

أحاول أن أعرف ما لا يريد أن يعرفه أغلب المتجهين في الطريق إلى مكة . .

ويزيد من هذه الرغبة أن تفاصيل الرحلة - على هذا النحو - غابت بشكل عام منذ القرن الحادي عشر الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، قبل هذا التاريخ كان أدب الرحلة لدينا زاهراً ، ولا يزيد أن نكتب الآن دراسة عن هذا الأدب

وألوانه وأنواعه ، فقد سطر عنه كثير ، لكن المهم أن أدب الرحلة قبل هذا التاريخ كان لدينا مزدهراً ، ثم أخذ في الخفوت رويداً رويداً حتى عاد في القرن الأخير إلى التطور والازدهار من جديد .

بيد أن مراجعة الرحلات إلى بيت الله الحرام في الحقبة الأخيرة لدينا تروعننا أننا لا نكاد نقع على رحلة من هذه الرحلات في العصر الحديث تقوم بالمعرفة ، وتقدم الدروس المستفادة من أدب الرحلة في الإسلام ، وكما تحدده العقيدة .

إن مراجعة أغلب هذه الرحلات اليوم لم تزد على أن ترسم شريطاً موشى بالحب الإلهي للبيت وآل البيت ، ووله بالحب الإلهي بشكل تجريدي لا يرتبط بالدنيا التي نعيش فيها في قليل أو كثير ، ويلاحظ هنا أن أغلب الرحلات في العالم الإسلامي إلى الحج لم تزد عن هذا ، غير أن هناك عدداً من الرحلات التي ترتبط بالحج أو ترتبط (بالرحلات) بشكل عام خرجت عن هذه القاعدة ، أو أضافت إلى هدف الحج - الروحي - وعياً بالهدف - الآخر - الذي لا يخرج عن العقيدة بأية حال ، وإنما يضيف الوعي الذي يجعلنا واعين لدنيانا وآخرتنا في الوقت نفسه .

وحديث الرحلات في التراث الإسلامي يقترب بنا أكثر من (فوائد) السفر .

* * *

إن الرحلات بشكل عام لاقت اهتماماً كبيراً لفائدتها في اكتساب وعى جديد ، كما أكدت (فوائد السفر) وعياً باطنياً يشير إلى التنبه إلى الحياة والأحياء والتطورات البشرية والاقتراب الصحيح ومعرفة العلماء وما إلى ذلك .

إنها الرحلة التي لا ترتبط إلا بما نصَّ عليه النص القرآني ، ودعت إليه الحياة التي نحياها في هذا العالم .

وقد فطن إلى ذلك ابن خلدون ، حين قال في فترة مبكرة إن (. . الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال) ، وهو ما أشار إليه بشكل أو بآخر الإمام الغزالي في جزئه الثاني ، حين قال في باب (فوائد السفر) إن السفر سفران (سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى

والفلوات ، وسفر يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف
السفرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة ،
الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم درجة القصور وقانع بمرتبة
النقص ومستبدل بمتسع فضاء - جنة عرضها السموات والأرض - ظلمة السجن وضيق
الحبس . . .)

وبعد ذلك بفترة زمنية ، قال محمد الخضر حسين ما معناه : أن الإسلام لم يترك
وسيلة من وسائل الرقى إلا نبه عليها ، وندب إلى العمل بها ، وهذا شأنه في الرحلة ،
فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية كثيرة ، منها « طلب العلم والتفقه في الدين ،
والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة . . . وما إلى ذلك » .

وقد توالى الرحلات طيلة القرنين الماضيين بشكل لم يكن ليتمكن أن تكون بمعزل
عن العالم بأيّة حال حتى نوقشت رسائل وطبعت دراسات عديدة حول الرحلة فقط
(ربما كان أبرزها كتاب لنازك سبایارد) عن الفكر العربي وتطوره .
وهو ما يعود بنا ثانية إلى هذه الرحلة .

وعلى آية حال ، فقد حرصت أن أكون واعياً أثناء السير إلى مكة بأحداث
الطريق ، وهى أحداث لم تبدو ذا أهمية كبيرة في الرحلة في حد ذاتها ، غير أنها كانت
تشير إلى ملابسات مهمة تصل بى - مع الوعي الذي جهدت أن يكون حاضراً - إلى
الغاية التي أردتها في هذه الحقبة الخطيرة من تاريخنا .

لم يكن الهدف - كما أشرت - هو رصد الطريق بين مصر والحجاز ، وهو
ما فعلته أكثر الكتب التي كتبت عن هذه الرحلة (*) ، كما لم يكن من هدفى التوقف عند

(*) هناك كتب كثيرة أغرقت في هذا ، لعل من أهمها في هذا الصدد (رحلة الحجاز) ، وقد كتب
تحت عنوانه على الغلاف الخارجى هذه العبارة (وتشتمل على وصف عام للحجاز وعلى المنازل
والمناسك والأدعية التي تقال بها ومسافات الطرق ونهذ في المسائل الصحية وشذرات تاريخية) من
تأليف الدكتور عبد الغنى شهنذر (نشر في بيروت ١٩٣٧) ، وفعل مثل ذلك صاحب (الرحلة
الحجازية) بالتركية وهو أوليا جلى . . وغيرهما كثير .

دراسات ضافية حول زمن الرسول وبيت النبوة وفي منزل الوحي والفتنة الكبرى ، أو الدوران حول التاريخ الإسلامى فى رصد العبقرية أو الاستدعاء للميثولوجيا الكبرى . . وما إلى ذلك كما فعل أساتذة كبار كعباس العقاد ومحمد حسين هيكل وطه حسين . . وغيرهم ، فلم يكن الكتابة بهذا الشكل من أهدافى قط . وإنما كان الهدف الأول أن أرصد ما طرأ على الجزيرة العربية من « واقع حى » (خاصة أنه توفرت لى أكثر من رحلة سابقة للرياض) وأرصد للوعى الثقافى داخلى إزاء ما أراه ، وأتفاعل معه إلى درجة أن أكون (شاهد عيان) لما أعيش فيه ، وفى جميع الحالات كنت أشتعر مسئولية جيمة ، وأنا أؤدى الفريضة كمسلم يعيش على هذه الأرض العربية والإسلامية .

صحيح أن هناك بعض الكتابات التى نقلت ما رأت بوعى وقصد سليم ، غير أنها كانت - فى الحصاد الأخير - قليلة ، لا تشفى قلب القارئ ، ولا تصل به إلى غاية واضحة أو قريبة من الموضوع ، من أهم هذه الكتابات أختار كتابين : أحدهما قريب ، وهو مراد هوفمان (الطريق إلى مكة) ، غير أن النص كان فى الأصل منشوراً بالألمانية فى التسعينيات لعالم ألمانى أسلم ، ومن ثم ، غلبت عليه رؤية شرح الذات أو الدفاع عن موقفه الجديد ، وإن لم يسلم كتابه من لمحات واعية (والمثال البليغ فى هذا كتاب د . على شريعتى : الحج الفريضة الخامسة) ، أما الكتاب الآخر فهو بعيد ، يصل إلى ما قبل قرن من الزمان حين كتب عبد الرحمن الكواكبي كتابه (أم القرى) ، وقد كتب على غلافه الخارجى ما ينم عن موضوعه (وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المتعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ ، بما يشير إلى أن صاحبها لم يقيم برحلة للديار المقدسة ، وإنما كان هدفه تصوير مؤتمر ، تمنى أن يُعقد فى (أم القرى) لرصد أسباب (الفتور) التى عمت العالم الإسلامى . .

والكتاب الأخير - وإن لم يلتزم بخصوصية أدب الرحلات أو كتب الرحلات بشكل خاص ، فإنه يشفع له الجدية والوعى الفكرى الفائق ، الذى حاول أن يقوم به للبحث عن (جمعية) أو (مؤتمر) للنظر فى حال العالم الإسلامى فى نهاية القرن

التاسع عشر ، وهذا الكتاب وغيره أودى بصاحبه إلى مصير دام لم يستطع أن يفلت منه كلما سعى إلى البحث عن رؤية أو طريق للوصول بالأمة إلى طريق السلامة .

وعدا ذلك ، فإن العصور على ما يؤدي الهدف من الرحلة لم يكن ميسوراً بالقدر الكافي خاصة في بداية الألفية الثالثة ، ومن هنا ، كان اهتمامى الفائق بهذين الكتاين حتى أننى توقفت طويلاً أمام الكتاب الأخير ، الذى صحنى بفكره ووعيه طيلة رحلتى إلى عرفات وحتى بعد العودة منها .

والآن فلنقترب أكثر من الرحلة . .

* * *

obeikandi.com

٢ - ثم إن هذه الرحلة

ثم إن هذه الرحلة الأولى لم تكتمل إلا حين عدت إليها مرة أخرى الآن (عام ١٤٢٣ - ٢٠٠٢) .

* * *

كنت قد عبرت الأولى من جدة التي أقمت بها فترة ، قبل أن أصل إلى مكة : وصولاً إلى جسر الجمرات ، ثم ها أنا أعبر الثانية الآن من جدة إلى المدينة مباشرة لأكمل مراسم العمرة . .

كانت الأولى تتماشى مع الظروف القاسية التي عرضت لها في موسم الحج .
وها هي الثانية تمضى بنا إلى مكة لإكمال تطوع آخر لم أكن قد أدتيته في الرحلة الأولى ، وفي الحالتين لم أكتف بالنظر والتأمل عند المدينة ، في زيتها الجديد ، بل سبقت إليها مرحلة من مراجعة أغلب رحلات الأرض المقدسة من عرب وأجانب ، فضلاً عن رصد ما طرأ من أحداث وتداعيات ، وما تغير على المستوى الإستمولوجي والميثولوجي على المنطقة في الحقبة الأخيرة .

وعلى هذا النحو ، كانت الرحلة قد اكتملت - خلال سنتين - أو كادت تكتمل ، وفي كل الحالات كنت ألاحظ ما يطرأ على - فضلاً عن الحس الروحي الشفيف - غيمة من الحزن ، التي كانت تمتلك كياني لحجم التغيرات السياسية الداخلية والخارجية ، ولحال الناس حجاجاً أو معتمرين ، ونحن نقترّب من منتصف القرن الخامس عشر الهجري (بدايات الألفية الثالثة الميلادية) ، ومع هذا كله ، لم يغادر الوعي أعماقي قط ، فقد كنت أردد دائماً الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس : ٤٤) .

وعلى هذا وجدت نفسى أدعو للخروج من هذا الواقع - المظلم الظالم - بين طرفى سكين حادة ، لابد من الانتباه لهما قبل السقوط فى وهدة اليأس والألم ، كان الحد الأول ، عامًا ، هو قصور العلماء وولادة الأمر ، ومن ثم ، العامة والأمة . . وثانيهما ، خاصٌ ، قبل السقوط ، وهو الوقاية من السقوط أو الحرص ألا أسقط فيه رغم القوة التى تدفعنى إليه كيلا أصبح من « القوم الكافرين » .

فالإسلام يربأ بمعتقدته عن اليأس ، ويربأ عن اليأس بالحركة والوعى الإيجابى . . كتبت فى أوراقى الخاصة :

هبطت إلى مطار جدة فى الثالثة من صباح ٢١ أكتوبر من العام ٢٠٠٢ . . وصلت من القاهرة إلى جدة . .

ولازمنى حين هبطت إلى مطار جدة هذا الإحساس الروحى الشفيف والحزين أيضاً ، لقد جئت إلى جدة هذه المرة خصيصاً ، المرة الماضية أرغمنا للخروج من مكة إلى جسر الجمرات تحت ضغوط نفسية وقدرية لم يكن لنا بها مقاومة ، ومن ثم ، لم أستطع أن أخلص هذه المرة من مرارة قديمة عبرت بها إلى جدة (الميناء الجوى) ، وعانيت - كما رأينا فى بداية التجربة الأولى ، حين تعرضت لويلات كثيرة من زوجتى ، غير أن الوصول إلى جدة ، كان معناه هنا الوصول إلى غياب كل الوعود - وقد كانت رسمية - والتخلى عن قيمة الأوراق التى بين أيدينا ، ومهما يكن ، لأعد لهذه الزيارة الأخيرة .

كان علىّ لإكمال هذه الزيارة الآن التهيؤ للذهاب إلى المسجد النبوى ، قبل الذهاب إلى المسجد الحرام .

كان علينا - وقد أصبحنا الآن فى مطار جدة - التهيؤ إلى رحلة شاقة نعبر فيها صحراء قاحلة طويلة سوداء قائمة أثناء الليل إلى مدينة الرسول ، التى عاش فيها أزهى سنوات الدعوة ودفن فيها .

وصلنا بعد الفجر بليل ، كان الشروق فى طريقه للاكمال .

جاوزنا قرابة الخمسمائة كيلو للوصول إلى مسجد الرسول فى هذا الصباح الندى ، ونحن نحمل مدداً روحياً عالياً ، ورغم أن تكوينى عقلى خالص ، فقد تعلمت

أن القلب الذكى هو من أول شروط الإيمان ، بل إن العودة إلى العقل لاتخاذ القرارات أو اليقين إنما كان يمر بالقلب الذكى دائماً : فإن (تستفتى قلبك) حكمة كان يعلقها الرسول - ﷺ - فى رأس كل مؤمن .

المهم ، لاح مع إشراق الصباح هذا البناء الفخم الضخم للمسجد النبوى ، والذى صرف عليه من الخزانة السعودية بشكل فاق كل تصور ، فقد كانت السياحة الدينية هذه الفترة - فيما يبدو - أكثر ما تحرص عليه السعودية ، التى تعانى من تقلص واردات البترول ، وتعانى من تجميد مليارات الدولارات فى الخارج فى عاصفة مانهاتن أو خديعة (بن لادن) ، التى أصبح بعدها الإسلام هو الشر الأعظم (إيقاع التعبير يذكرنا بإيقاع تعبير مشابه ، كان يطلق فيما مضى على الاتحاد السوفيتى حين كان هو العدو القائم) ، ومن هنا ، كان لابد أن يكون هذا البناء بهذه الأبهة عما كان من سنوات قليلة ، إننا أمام واجهة ضخمة ، تحكى المهابة العالية السامية التى وجدت شبيهاً لها فى كثير من مدن إسبانيا ، قبل أن يخرج منها المسلمون أو بعدها . .

لم تلفت نظرى فخامة البناء وملحقاته وحسب ، وإنما - أيضاً - وهو ما ستمهل عنده فيما بعد سلسلة من الفنادق الضخمة الأكثر ارتفاعاً وفخامة ، السامقة أمام المسجد النبوى ، كأنها هدفنا الذى جئنا من أجله وإلى هذا المسجد الذى يحمل سر التاريخ وليس واجهته . .

كان دور المسجد معروفاً . .

أما دور هذه الفنادق الضخمة - التى وجدت ما يفوقها فى مكة - كان دوراً تجارياً خالصاً ، رجال الأعمال - مهما تكن جنسياتهم - قاموا بالعمل لإكمال المشاريع الضخمة فى عصر الشركات متعددة الجنسيات ، وفى زمن العولمة الاقتصادية والثقافية ، التى كانت تفعل كل شئ من أجل عيون هذه الرأسمالية الوقحة الشرسة .

هذه العولمة التى وجدنا المشاهد الأخرى لها - مقابل مشاهد الثراء فيما يسمى الآن « الحج السياحى » هناك مشاهد يندى لها الجبين للحج والعمرة ، يتكدس فيها آلاف القادمين من أنحاء شتى بشكل مزر ، وفى مصر بالذات عرفنا مثل هذه المركبات البرية

والبحرية ، التى تخلو من أى حرص على قيمة الإنسان ، فضلاً عن النصب والاحتياال على الفقراء ، الذين لا يحلمون إلا بزيارة آل البيت .

وعلى أية حال ، لم تذكرنا هذه الأبنية أو الفنادق الفخمة بدور الخانات القديمة هنا إلا بما يذكرنا النقيض بنقيضه . .

كنت كلما خرجت إلى قبر الرسول - ﷺ - تواجهنى هذه الأبنية التى تزخر بالمحلات التجارية تحتها وحولها ، والتى تزخر (بكل) صنوف الأدوات التى يقبل عليها المتسوق .

وكنت إزاء هذا كله أمارس العبادة اليومية فى المسجد بشكل جهدت أن أهياً نفسى خلالها وبشكل يتماشى مع عظمة العقيدة ، لا خداع الأبنية وملحقاتها ، كان القرآن الكريم قد ملك على كيانى ، كنت فى سنوات عمرى السابقة شغلت طويلاً بالتفسيرات الكثيرة التى التقيت بها وسهرت معها ليال طويلة ، ورغم ما كانت تزخر به (كل) هذه التفسيرات من إسرائيليات ، فلم أتفرغ تماماً لقراءة القرآن بشكل شمولى وتركيز واع . .

كنت قد قطعت عهداً على نفسى أن أعود لقراءة القرآن الكريم بشكل ، لا يفصل بين سورة أو سورة ، أو بين آية وآية مما يعطل ملكة الوعى الجاد . .

على أن طبيعتى قاومتنى طويلاً ، فلم أكد أقترب من الانتهاء من هذه القراءة الأولى حتى غلب على السعى إلى (الكتاب) الكتاب التراثى أو الحديث ، الذى يجعل من موضوعه الكتاب القرآنى ، ومن ثم ، مضيت أمتاح الذاكرة حين كنت هنا قبل خمسة عشر عاماً ، فقد كانت هنا (مكتبة) ما كنت أصعد إليها عدة درجات ، حتى أجد قاعة كبيرة زاخرة بأصناف كتب التراث القديمة ، فضلاً عن بعض المخطوطات . . وكلها لا تخرج عن التفسيرات والأحاديث والاجتهادات التراثية - فحسب . . استعدت الذاكرة ، وأنا أمضى بين أبواب المسجد النبوى ، اكتشفت أن فى باب (عمر) مكتبة قائمة هناك . .

كنت قد اتفقت مع زوجتى أنه بين كل أذان وأذان يتفرغ كل منا - أنا عند الرجال وهى عند النساء - لقراءة القرآن . . فإذا بى فى هذا الوقت أتجه إلى هذه المكتبة ، فأجد

كتباً تشبه إن لم تكن تتطابق مع الكتب القديمة ، غير أنها زادت بالكيف نفسه ،
(وغلقت) بورق مقوى ، وحصلت على أرقام وتنظيم أكثر . .

كان التغير فى الشكل ، أما المضمون فكان هو التراث القديم .

كنت أذهب إلى المكتبة من آن لآخر ، وأنا أحمل ورقاً أبيض وأقلاماً خبأتها فى
ملابسى ، وعقلاً يدرك أن أمامه كمّاً هائلاً من كتب التراث ، ولكنه لم يتردد أن يستعيد
مما سبق أن قرأه ، ويستفيد مما سبق أن أعرفه دون أن يقرأه ؛ إنه يقرأ ما يريد بوعى
شديد . . هل أعود إلى قراءة التراث ، ثانية ، وأنا أقرب من المتين ؟

لقد فرغت من هذه المهمة من سنوات بعيدة . .

بل وجاوزتها حين أضفت إلى التراث الحديث ، فحاولت من إكمال دائرة التراث
والحديث ، كنت واعياً لرواد النهضة سواء فى عصر النهضة الغربى فى القرون
السابقة ، أو عصر النهضة العربى الذى عرفناه منذ القرن التاسع عشر ، وإن كان
اعترض نهره الفياض كثير من ارتدادات الحاضر ونكساته ؛ ومع ذلك ، عدت إلى هذا
التراث . .

وعلى هذا النحو ، وجدت نفسى بين (كل) هذا الكم الرهيب من التراث
القديم .

وكان الجديد ما جاء أخيراً منه لا يتعدى عدداً قليلاً ، ويعود إلى أزمنة بعيدة فى
العصر الحديث . .

كان تراثاً خالصاً .

وكان إعجازاً بيانياً خالصاً .

وكانت جهود جبارة أشارت إلى البيان والإعجاز ، وهذا الإنجاز الهائل دون أن
تكون بالضرورة ابنة عصرنا الحديث ، وإنما كانت ابنة زمن آخر ، لم يقدر له حتى الآن
أن يقترب من العصر الحديث ، ويتفاعل التراث بالهوية الإسلامية والعربية بالحاضر
(بالتكوينات العصرية والرقمية) . .

خطر بذهنى وأنا أقرأ الكتب التراثية أحد المثقفين من بين المتمين إلى كلية علمية
عملية - كلية الزراعة - فى أحد اجتماعات المثقفين - وهى كثيرة هذه الأيام - . . وقد

ترك ليدلى برأيه ، إذ راح يصيح حوله فى المثقفين ، الذين تحدثوا طويلاً عن التراث بما يشبه النهر : « - فى عصر الهندسة الوراثية حيث الحاجة إلى الاكتفاء الذاتى ، أو تعرف الثورات العلمية التى تحفظ لنا استقلالنا وقوت يومنا ماذا نفعل بالتراث . . اتركوا التراث وتنبهوا إلى ما يفعله الغرب (- الأمريكى والصهيونى) خاصة بنا الآن » . .

لم أستطع أن ألوم أستاذ الهندسة الوراثية ، لكننى لم أستطع أن أنصاع لرأيه تماماً ، فكما يجب التنبه إلى ما يجرى حولنا ، وكما يجب التنبه إلى الثورة التقنية ، قبل أن تفوت ، بعد أن فاتت الثورة الصناعية ، يجب أيضاً - حدثت نفسى بين عدد كبير من القارئین من طلبة الكليات الدينية - التنبه إلى هويتنا وشروط تعرفها ، وطبيعة الاقتراب منها .

فإذا كان الحديث يأخذ حيزاً شاسعاً - كما نعرفه فى المعامل والبحث العلمى ودرجة الاهتمام الفائق به فى الغرب الآن - فإن التراث يجب ألا يغيب عنا كثيراً ؛ فالتراث إذا تنبهنا له فى بداية الألفية الثالثة يحقق وجودنا ، ويؤكد هويتنا ، ولا يجب أن نتخلص من التراث أو الماضى - قط - من أجل الحديث والحاضر فقط .

كنت طيلة تعرفى كل هذه المراجع والمصادر التراثية مهتماً أشد الاهتمام بالقضية ، التى أثارها العم سام القبيح أخيراً بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ، كان على البحث فى الكتب القديمة عن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فيما تصوره سورة الإسراء ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ (الإسراء : ١) .

شغلتنى كثيراً هذه القضية قبل أن أعبر إلى المسجد النبوى ، وها هى المصادر التراثية القديمة أمامى ، وبعض المصادر الحديثة تعرض للآية الكريمة ودلالاتها .

ما العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ؟

وما البراهين التى تجعلنا نرى فى القدس الآن أثراً إسلامياً يرتبط بعقيدتنا وهويتنا؟

ما العلاقة بين المسجدين / الرمزين ؟

المهم شغلت طويلاً بهذه القضية ، وأنا أحرص ألا أستغرق بفكرى بعيداً عن العقيدة ، وفي الوقت نفسه جهدت ألا أبعد عن بكائهم الطويل المستمر كالتعديد فى الريف المصرى ، وهو ما أراه الآن ساطعاً أمامى فى الواقع ، وفوق هذه الأرض ، وفى إطار هذا الباعث أو المرجعية التى تشير إلى أن العدو (الآخر) الآن لدى الولايات المتحدة الأمريكية أصبح وفق (استراتيجية) محكمة هو الإسلام عوضاً عن الشر الأكبر قبل ذلك .

كان فى ذهنى وأنا أوالى الاطلاع على مصادر تراثية ، لم أستطع أن أعثر عليها فى أماكن كثيرة ، أن أعيش أكثر فى جو النص القرآنى ودلالاته : العقيدة ، التاريخ ، الإستمولوجى ، الميثولوجى . . وإلى آخر ما يصل بنا إلى نقطة التقاطع بين الأصالة والمعاصرة - بالتعبير الحديث - للتعرف أكثر على جذور القضايا وفروعها .

وسوف أتمهل أكثر عند هذه القضية فى موضع آخر .

المهم هنا ، أننى لم أتوقف عن الغرق فى المصادر التاريخية قرابة خمسة أيام ، بين كل صلاة وصلاة حتى رحلت من المسجد النبوى إلى المسجد الحرام ؛ وأن أكون بوعى قارئ جديد .

من المدينة إلى مكة . .

وعدت لأوراقى . . . ، لأكتب :

عبرت من جدة إلى المدينة بما يقرب من ٥٠٠ كيلو ، وللخروج من المدينة إلى مكة كان علىَّ أن أقطع مثل هذه المسافة . . .

كانت الصحراء مترامية . .

غير أننى لا أستطيع أن أغادر المدينة ثانية ، دون أن أعود للحديث عن سمات هذا الثراء أو تلك الأبنية الضخمة التى تفوق - حتى المسجد النبوى - وهو لم يكن كذلك حين جئت هنا للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة ، لقد غدت المدينة أكثر إغراقاً فى الزمن الغربى ، وأكثر بعداً عن الطابع الإسلامى . .

فقط الحس العقيدى هو الذى يجعل المؤمنين يأتون إلى هنا . .

يأتى الغالبية منهم بالدافع الروحى الخالص . .

ويأتى الأقلية بدافع البيع والربح . .

لكن الغالبية تأتى ، خاصة من المدن الإسلامية بهدف دينى محض ، ومن ثم ،

فإن (كل) هذه المظاهر الغربية لا تلفت نظر الكثيرين .

وهو ما عثرت عليه - وإن يكن بشكل أكثر حدة - فى مكة . .

إن الكعبة - فى مكة - بناء عقيدى ذو تاريخ له جلاله . . بناء لا يزيد طوله عن

١٧ متراً ، وارتفاعه عن ١٥ متراً ، تحيط به القدسية التى ينطلق منها من يتهاى لإكمال

مناسك العمرة والحج . .

وكما أن الأمر فى المدينة يتضاءل أمام الحس العقيدى الخالص ، فإن الأمر فى مكة

- عند غالبية الزائرين - يتضاءل كذلك ؛ خاصة أن الأبنية الضخمة أمام وحول الكعبة

تفوق مثيلتها فى المدينة .

كانت الأبنية الضخمة والفخمة الحديثة الآن تحيط أكثر - بما يشبه الحصار للكعبة .

ولأن مكة المكرمة تقع - جغرافياً - داخل وادى ضيق ومحدود هو - كما يطلق عليه

(بكة) ، فإن المنطقة حوله تمثل منطقة عالية ، تزيد فيها الأبنية التى تزداد علواً ،

والرحالة فى العصور القديمة كانوا حين يسهبون فى هذا الوضع يتحدثون عن الوديان

السبعة العالية حول الكعبة ، التى كانت تسيل منها الأمطار نحو هذا الوادى فتغرق

الحرم .

وهو ما يشير إلى الواقع الجغرافى ، الذى يمكن أن يتخيله المرء الآن فى وجود

الكعبة فى منطقة منخفضة ، فى حين المنطقة حولها عالية ، وتزخر بأبنية عربية ليست

لها أية علاقة بينها وبين الرمز التاريخى للكعبة ، فقط المعنى المزيف الذى نجده على

واجهه هذه الأبنية الضخمة حين ترصع المشربيات بأشكال ، تريد أن تخدع الزائر بأن

هذه الأبنية هى جزء من الكعبة ، وهى أبنية يمكن أن تخدع الزائر لأول مرة لأداء

الفريضة أو العمرة .

ومع هذا ، لم يكن هذا ليوقف حائلاً بينه وبين هذا الإنسان ، الذى يأتى من البلاد البعيدة والقريبة ، وهو يرتدى ملابس الإحرام (البضاء) ليقوم بالمناسك المعروفة . . فإذا تغاضينا عن هذه الناطحات فى الخارج لرأينا - وإن يكن من بعيد - كائنات مؤمنة ترتدى ملابس الإحرام ليقوموا بهذه المناسك بدءاً من الحجر الأسود حتى الضلع الجنوبي ، ويبدأونها بالطواف فور دخول منطقة البيت الحرام . والطواف يأخذ مناسكه الدينية المعروفة . .

بيد أننى قبل أن أكمل الحديث عن مظاهر التغير الحادة فى مكة ، وما يتبعه من مناسك وإحرام . . وما إلى ذلك يجب الاستدراك - بلمحة - حول الطريق من المدينة إلى الكعبة . . فقد لاحظت أن مظاهر الزمن الغربى التى تتسلل الآن فى بلاد الحجاز (والجزيرة العربية كلها) لا يمكن إغفالها . . ومن ثم ، سوف أنزع نفسى أكثر لأتمهل عند هذا الطريق ، قبل أن أعود ثانية إلى مكة .

لقد غادرنا المدينة إلى مكة ، وفى الطريق الطويل كان لابد أن نمر على ما يسمى (الميقات) الذى يحرم عنده المعتمر .

ولأننى آت من المدينة ، كان الميقات يقع فى منطقة المشاعر المقدسة التى تمارس فيها الشعائر ، فلا يجوز الدخول إلى هذه المنطقة المقدسة دون ملابس الإحرام ، ولهذه المنطقة حدود تينها من ناحية وتشكل نهايات الطرق التى تؤدى إلى دخول منطقة المشاعر من ناحية أخرى ، وتقول المصادر الدينية أن الرسول - ﷺ - حدد هذه المواقيت لكل من مر بها . .

ولأننى آت من المدينة الآن ، فإن ميقات أهل المدينة هى (أبيار على) ، وهى منطقة كانت تسمى (ذو الحليفة) بينها وبين المدينة سبعة أميال أو ستة ، وهى أبعد المواقيت عن مكة (بينه وبين مكة بالكيلو مترات ٤٥٠ كيلو متراً) ويقع فى شمالها^(١) .

(١) صحيح أننى آت من مصر ، لكننى أخرج الآن من المدينة ، غير أن ميقات أهل مصر - منذ التاريخ القديم - كان يمر بقرية الجحفة ، وهى قرية خربة قرب رابغ ، بينها وبين مكة خمس مراحل أو ست ، وتقول المصادر القديمة إن من أحرم من رابغ فقد أحرم قبل الميقات بيسير ، وهى فى الشمال الغربى من مكة ، وبينها وبين مكة ١٨٧ كيلو متراً ، وبين رابغ ومكة ٢٠٤ كيلو مترات . وهو ما نجده فى كثير من المصادر القديمة ، وهى كثيرة . .

وتشير المصادر الجغرافية خاصة أن (ذى الحليفة) أبعد المواقيت عن مكة ، غير أنها لا تبعد عن المدينة المنورة بأكثر من ١٥ كيلو متراً ، وتقع إلى جنوب غرب المدينة - كما نرى من الخريطة - وتطلق على أبيار على (آبار على) ، ينطلق منها الحاج أو المعتمر من المدينة إلى مكة .

ورغم أن الطريق بين المدينة ومكة مروراً بأبيار على تبدو بعيدة قد تصل إلى ٥٠٠ كيلو متراً أو يزيد قليلاً ، فإن الطريق القديم الذى كانت تصل إلى (عيذاب) قرب الحدود المصرية السودانية ، ثم تعبر عند (جدة) ومنها إلى (مكة المكرمة) كانت تصل إلى حوالى ١٢٠٠ كم (بين القاهرة و عيذاب) ، وكانت الرحلة تستغرق ما بين شهر وأربعين يوماً .

أما فى حالتنا هذه . . فإن الرحلة بين المدينة إلى مكة - رغم الميقات - لم تستغرق أكثر من خمس ساعات أو ينيف قليلاً ، وهو ما يشير إلى أن المشقة - وإن تحدث عنها الكثيرون من المسافرين معنا - لم تكن لتقاس - بأية حال - عن المشقة قديماً ، حيث كان يضاف إلى بعد الطريق ، وصعوبة وسائل المواصلات ، الأخطار التى كانت تحيق بالمسافر سواء من اللصوص أو البدو وفى (صُبح الأعشى) يسهب القلقشندى كثيراً^(١) فى كثير من هذه الأخطار كالحروب المحلية أو الخارجية .

المهم ، وصلت إلى مكة - مروراً بأبيار على التى سنعود إليها ثانية - على أصوات (لبيك اللهم لبيك . .) ، فهبطنا إلى الفندق ، لنترك أمتعنا ، ثم نلحق بالكعبة مباشرة وبثياب الإحرام . .

. . ها أنا ذا أعود إلى الضلع الجنوبي (عند الحجر الأسود) حيث الدخول فى المناسك ، فأمر بهذه المنطقة الدينية التاريخية من باب الحجر الأسود والركن اليمانى ، حيث هناك ضلع شرقى آخر ما بين باب الكعبة والملتزم ، أى تجاه مقام إبراهيم وبئر زمزم .

(١) انظر : القلقشندى أبو العباس أحمد بن على ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

ثم ها أنا أتى من ناحية الضلع الشرقى ، من مصر ، ماراً بأرض صحراوية شاسعة لأبلى قبل أن أصل إلى الكعبة . .

وبالفعل ، قمت بهذا كله منذ وطئت قدماى هذه الأرض - بصحبة زوجتى - وبعد إتمام هذه المرة كان على - كما هو معروف - أن أتحلل . . غير أننى فى الأيام التالية قمت بالإحرام والعمرة لمرتين : لأمى وأبى لأقوم بكل هذه المناسك ، مع فارق عن المرة الأولى ، إننى فى المرتين الأخرتين ، كنت أذهب لمنطقة تسمى التنعيم للتأهب إلى بدء عمرة أخرى . .

وعبوراً فوق إجراءات الطواف ومناسك العمرة ، فقد لفت نظرى عدة مشاهد لا يمكن المرور عليها ، وهى مشاهد تستأهل التأمل فيها وربطها بالزمن الغربى . . . الزمن الغربى المهزوم فيه الشرقى هنا .

* * *

مشهد :

وعبوراً فوق إجراءات الطواف وبقية المناسك وهى معروفة ، كان أكثر ما لفت نظرى داخل المسجد الحرام ، حيث تقف الكعبة شامخة أمام كل هذه الألسن المتباينة ، ليس من جنوب شرق آسيا وحسب ، أو من الجمهوريات السوفيتية المنفرطة أو المرتبطة بسلطة ما ، وإنما من بين عرب ، لم أستطع رغم سماع الحديث بينهم ، أو توجيه بعضهم الحديث لى ، لم أستطع أن أفهم ما يقولون . . اللغة الغريبة عن العربية .
واللغة الغريبة التى تنتمى إلى العربية . .

أناس من كل بقاع العالم جاءوا لتأدية العمرة (أو الحج) ، وأدعية بصوت عال لا أفهمها فى الغالب ، ودموع وصيحات تقترب من (التعديد) فى الريف المصرى ، لم أستطع أن أصل إلى معناها ، وإن فهمت أن نعمة الحزن الشديدة العاصفة تغلب عليها .

إن أناساً كثيرين من شتى أنحاء العالم الإسلامى يعانون كثيراً الآن ، ونظرة عجلنى إلى الخارطة العالمية ترينا كم من المسلمين المضطهدين فى أنحاء هذا العالم ،

خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، وتحول شبح (الشر الأكبر) من الاتحاد السوفيتي إلى الإسلام الذي أصبح إرهاباً ، وأصبح يوصم - ظلماً وجهلاً - بصفة (الشر الأكبر) أو (محور الشر) . . وما إلى ذلك من التسميات التي تطلق الآن على عدو جديد ، مصنوع أو مفتعل ، لابد من أن تصبح بلاده مناطق لضرب النار لترويض مناطق أخرى . .

أصبح بدهياً أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية التي بدت أكثر سفوراً عقب سقوط سور برلين وتبلور (النظام العالمي الجديد) في التسعينيات ، هي السياسة التي تتحول إلى عوملة ، ولا تلبث أن تتحول إلى (عمكرة العوملة) خاصة بعد عاصفة مانهاتن ، حيث بدا أن المناخ أصبح صالحاً تماماً لتنفيذ استراتيجية أصحاب رؤوس المال ورجال الأعمال والاقتصاد الغربيين .

كان أكثر هذه الأصوات دلالة ما رأيته حول - وأمام - الكعبة ، فقد كانت الأصوات الغامضة هادرة ؛ والدموع الكثيرة تجري فوق الحدود ، وحركات الجذب والشد في ستار الكعبة في حركة دائبة متوسلة . .

هؤلاء هم البؤساء في الأرض ، الصائحون في لغة أشبه بالصمت ؛ لأنها لا تبين عن الشكوى ، الضائعون في عالم لا يرحم الضعفاء أو المستضعفين . . الغائبون في الزمن الأمريكي القبيح والكئيب .

* * *

مشهد :

كان أكثر ما يميز هذه الأصوات ليس الغموض وحسب ، وإنما درجة الأنين العالية ، أغلبها يتجه إلى السماء ، جهرها يترجم بكاءً صامتاً مكبوتاً ، صامتاً وعالياً ، حزيناً ومجروحاً . .

أغلبها يدور حول نفسه في النغمة المروعة المكررة لندب الحظ : بشر كثيرون يأتون من جنوب أفريقيا ، وأكثر من شرق آسيا ، وأكثر من دول سمعت أسماءها من المرافقين لهم : كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وقرقيزيا ومنغوليا وطاجيكستان

وأذربيجان وتاتارستان والشيشان . . فضلاً عن أفراد كثيرين من الصين الشعبية وروسيا نفسها ومنغوليا . . إلخ .

ثم هؤلاء الذين يضمنون في جماعات ويميزهم الإمام ، الذى يرتدى السواد فى المقدمة من إيران ، وهم أكثر الحاضرين نشاطاً ، وأكثرهم ترتيلاً ، وأكثرهم حزناً وصمتاً .

كانت أكثر الأمكنة التى رأيت هؤلاء فيهم فى كل من الساحة الدائرية حول الكعبة ، بالعروض الطقسية المختلطة ، والحديث المرتفع أحياناً الذى لا يفهم منه شيء ، ثم - وهذا مكان آخر - وجدتهم بكثرة فى أبيار على فى الطريق إلى مكة ، وقد هالنى حيث دلفت إلى المسجد لقضاء ركعتى النية للإحرام ؛ إذ وجدت (جماعات) يجلسون وراء أحدهم ، وبثياب الإحرام ، وببؤس شديد . . وهم يرددون وراءه بصوت هادر مكسور حزين أدعية أو رثاء أو بكاءً مكبوتاً عن (حالهم) . .

حال العالم الإسلامى فى قبضة الغرب .

حال العالم الإسلامى الذى يعانى الفاقة والظلم والتعصب .

حال العالم الإسلامى وقد أصبح الآن هو (الشر) الذى يجب أن يحاربه ويقضى عليه الغرب (وليس أمريكا وحدها) .
لقد رأيت هذا المشهد كثيراً . .

جماعات وفردى : من العرب والأجناس الكثيرة البائسة فى شمال العالم وشرقه من المسلمين ، يعيشون فى غربة الوجه واليد واللسان . .
رأيت هذه المشاهد كثيراً كثيراً . .

* * *

مشهد :

والغريب أن هذه الجماعات كانت لا تملك وعياً كافياً لما يحدث حولها ، وقصارى ما كانت تفعله للتعبير بشكل مباشر عما تعانى ، كثير من هذه الأدعية التى كانت تردد حول الكعبة وقريب منها بين جدة والمدينة ومكة .

ووجدت كثيراً من هذه الأدعية لا تعبر عن الهم الذاتى بعربية صحيحة ، وإنما بلغات لا تمت للعربية بصلة ، اللهم فى (الخطاب) الذاتى ، وبعضها كان - لظروف تاريخية - يكتب اللغة بحروف عربية ، بينما كان التعبير بلغة أخرى تماماً .

وأكثر ما يميزها هذه الروح التى تدل على الهم الدفين ، ثم التعبير العام الذى لا يشير إلى الربط بين هذا التعبير - وقد كان اليومى منه فى غاية القسوة - والتعبير الدعائى المباشر بأصوات تعكس الهدر اليومى للإنسان المسلم والهم الدفين ، حين تعبر عبارات بأصوات تجهش بالبكاء لا تمت لرقعة الحزن فى شىء وإنما إلى قسوة التعبير ، وهى كلها لا تخرج - لضعف اللغة أو غيابها - عن عبارات تقرأ من أوراق تحمل من مثل :

« ربنا نجنا من النار سالمين غاثين فرحين محتشرين مع عبادك الصالحين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله رفيقاً ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا الله تعبداً ورقاً ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، . . » .

إلى آخر هذه الأدعية التى كانت تعلق ، لتتردد على ألسنة آخرين عبر الطواف حول الكعبة أو الصفا والمروة .

وما يحمل دلالة مهمة فى ذلك أن مثل هذه الأدعية التى كانت تقرأ من ورق أو كتيبات غير عربية فى الغالب ، كانت تختلط فيها العبارات الإيرانية بالباكستانية . . بالأفغانية . . بالصومالية . . إلى آخر هذه اللغات والدعوات المكتوبة لصاحبها ، التى لا يفهم مضمونها فى الغالب اللهم إلا التعبير الأخير عن التعبير الحزين لما يحدث فى هذا العالم له .

وهو ما كان يحمل هذا التناقض بين الدعاء ومضمونه ، بين غياب الحلم واستفحال الجهل ، بين عمق الهموم وغيبة التعبير عنها بشكل مباشر .

وإذا شئنا أن نكون أكثر دقة فنقول إنها تدل على الواقع المؤلم لهذا المعتمر الطائف بالكعبة ؛ حيث يعكس هذا الحال غياب العلماء وغياب المسلم الواعى . . وهو ما يعبر عنه النص القرآنى الذى كنا نستمع إليه أثناء صلاة الجماعة ، أو بعدها أو فى الترتيل المتفرق هنا وهناك فى باحة القلعة :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال : ٤٦) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس : ٤٤) . إلى آخر ما يعكس حال العامة والعلماء ، المثقفين وولاة الأمر . .

وهو ما كان يعكس الآن فى كثير من الصور الحزينة التى عثرت عليها كثيراً ، حين أجد الكثيرين يجهشون بالبكاء بأصوات عالية ، إن الكثيرين يتجمعون فى مكان مثل أحد أركان المسجد الحرام ليقرأوا القرآن بصوت عال يتخلله بكاء مؤس ، أو هذه النهنات الحزينة إلى درجة الألم الشديد حين يتعلق الكثيرون بأستار الكعبة ، ويصيحون بأشياء يريدونها أو يكتبونها فى ههناات محمومة ، والحراس يدفعونهم بعيداً عن الالتصاق بجدران الكعبة ، خوفاً عليهم من الزحام . .

إن الواقع يشير إلى أن حبل الوعى والوحدة بين العلماء والعوام مقطوع تماماً ، وأن الوعى العام لما فى (الخطاب) الدينى غاب إلى حد بعيد .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإنه لا يبقى غير هذه المحاولات التى تستغيث بربها من ظلم عباده وتتوسل برسولها محمد (ﷺ) من سوء الحال والمآل . وهو ما لا تطيع معه أن نتجاهل الطرف الآخر من الصراع ، فإذا كنا نضع حبل التقصير حول رقاب أهلنا من ولاة الأمر أو المثقفين أو - حتى العوام - فإن الآخر (وهو هنا الغرب) طرف لا يمكن أن ننحيه جانباً .

فالغرب كان قائماً وموجوداً بكل هذه المشكلات التى تزرع فى أرض المسلمين وفى عقولهم فى كل مكان يوجد فيه هذا (الشر الأكبر) الجديد الذى اكتشفه الغرب - فجأة - عقب عاصفة مانهاتن ، على أن هذا لا يعفى العلماء وولاة الأمور عندنا ، وهو ما يعود بنا إلى غياب العروة الوثقى - والكفر بالطاغوت والإيمان بالله بالشكل الواعى العميق . .

أين علماء هذه الأمة وولاة الأمر فيها فى هذا الزمان . .
وهو ما يتركنا ثانية على فراش الألم . .

مشهد :

ها هو المسجد الحرام ، تحيط بمساحاته وتوسعاته الجديدة أبنية ضخمة (وقد بناها رجال الأعمال بشكل فخم . .) . . أبنية عالية تحيط بالكعبة ، وبين الكعبة وهذه الأبنية يقبع آلاف من المسلمين الآتين من مناطق الجزر من شتى أنحاء العالم ، يأتون بوجدان مجروح ، ويتمعون إلى خطب زاعقة تأتيهم من ميكروفونات عديدة تنتشر فى الحرم ، لا تخرج هذه الميكروفونات فى حديثها عن الإيمان الذى يقى من عذاب النار ، والتحذير من الخروج عن الدعوة المحمدية لدخول الجنة .

وهى ميكروفونات تحمل فى أصواتها من التشدد للإيمان والصياح فى هؤلاء البؤساء الصاغرين الجالسين فى الباحة أو الخارج ، وتحديثهم عن خشوع المخبتين (هل يعرف أحد من الجالسين هنا معنى لهذه الكلمة ؟) وأعمال الصالحين وسعادة المتقين . .

وقد يكون من المهم أن أنقل بعض هذه الدعوات التى تلقى أو تكتب لتقرأ أثناء الطواف ، وقد يكون من المهم أن ننقل بعضها ، وهى فى أغلبها فى كتيبات ، تحمل الصفحة منها أحياناً الدعاء بالعربية والوجه الآخر الترجمة إلى إحدى هذه اللغات الغريبة عن العربية ، والتى كثيراً ما يلقى بها الدعاء فى جماعات . .

وقد يكون من المهم نقل بعض هذه الدعوات ، التى يحث على أن تلقى بالأشواط حول الكعبة مقتصرين على عبارة من مثل :

« اللهم إني أسألك إيماناً كاملاً ، و يقيناً صادقاً ورزقاً واسعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً ، وحلالاً طيباً وتوبة نصوحة ، وتوبة قبل الموت وراحة عند الموت ومغفرة ورحمة بعد الموت ، والعفو عند الحساب ، والفوز بالجنة ، . . . » .

وقلما تخلو يد من أيدي هؤلاء المسامحين ممن لا يتحدثون العربية من مثل هذه النشرات والدعوات العقيدية الخالصة ، والتي لا تخرج قط عن مثل هذه العبارات السابقة بأية حال في كتيبات كثيرة لا تخرج عن الأدعية التقليدية في شيء ، يطلق على الدعاء في إحداها تعبير (الشوط) ، وتوالي الأشواط ، شوط أول وشوط (دو) وشوط (سوم) ، ونضع بين يدي القارئ بعض عبارات من الشوط الأخير (أي الشوط الثالث) ، نقرأ باللغة الغربية عنا ، ولا نلبث أن نجد الترجمة العربية .

نقرأ على سبيل المثال عبارة من مثل :

« خداوندا ! تودر خواست می کنم به « اسم » نهان وپنهان . . . » (*) .

(*) انظر إلى هذا النص - على سبيل المثال - لندلل به على اللغة التي كانت تشيع إلى حد كبير في المسجد الحرام :

شوط سوم

خداوندا ! از تو درخواست می کنم به « اسم »
نهان وپنهان وپاک وپاکیزه ومبارکت واز تومی
خواهم به اسم بزرکت وحاکمیت ازلی ات . ای
بخشنده عطاها وای آزاد کننده اسیران وای نجات
دهنده کردن ها [ی مردیم] از آتش دوزخ ، از
تومی خواهم که رحمت فرستی بر محمد وآل
محمد ومرا از آتش جهنم برهانی ومرا از دنیا در
حال سلامت جسم وایمان بیرون بری وبا امنیت
کامل به بهشت وارد سازی وسرآغاز دعایم
رارستکاری ونیمه آن را موفقیت وپیروزی
وپایان آن رادرستکاری قرار دهی . همانا تویی
داننده نهان ها .

ونعود على الصفحة التالية لنقرأ :

« اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون الطاهر الطهر المبارك . . » .

والدعوات طويلة والدلالات ظاهرة . .

ونسارع هنا بالقول إن صلاح الإنسان ، ضرورى للمجتمع ، وإن الإيمان بدرجاته العالية هو الذى يصفى النفوس ويحيل إلى العقل : غير أن هذا كله يظل مرهوناً بالوعى بما يحدث حولنا ، ففى غياب وعى إسلامى لما يحدث من استبداد الآخر (الغرب) بالإنسان العربى ، أو استبداد الآخر (ولاية الأمور والحكام) بهذا الإنسان ، يحول بين فهم الرسالة التى جاءت العقيدة من أجلها ، فلم تكن العقيدة إيماناً وحسب ، وإنما الإيمان الذى يؤكد العمل والحث عليه ، والجهاد ليس هو الجهاد الأكبر الذى حثنا عليه الحديث القدسى ، وإنما الجهاد الأصغر أيضاً (جهاد النفس) الذى هو - بشكل أكيد - الجهاد فى العمل ، وتأکید الوعى الإنسانى بما يحدث حولنا .

حدثتني نفسى وأنا أشهد حركة هذه الجموع حول الكعبة أو الصفا والمروة ، وصولاً إلى جسر الجمرات ، وأنا أردد أن الإيمان الحقيقى يظل إيماناً متكامل فيه الدرجة الفائقة من الإيمان بالله وبعناصر العقيدة ، وفى الوقت نفسه . . الإيمان برفض الظلم أو الانعزال عما يحدث حولنا ؛ فالتجمد عند الشعائر والمناسك فقط يظل إيماناً ناقصاً ، مجرداً ، أعزلاً من أى وعى لشروط الإيمان ، فالإيمان المجرد الذى يقترب من حد الصوفية الغائبة عن أخطار الحاضر ، بل من المؤكد أنه من غير المطلوب فى علمنا المتردى قط ، ومن ثم ، فهو - الإيمان بالله - لا بد أن يرتبط بشروطه ، وأهم هذه الشروط : أن الإيمان بالله يترادف مع رفض هذا الواقع ، ورفض عناصر الطغيان فيه ، فالإيمان بالله ومحاربة الطاغوت فى دنيانا يظل من أهم الشروط ، التى يجب أن يتمسك به المسلم ، وهو ما نفهمه من هذه الآية الكريمة ، يقول الله عز وجل :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

والقرآن الكريم ملئ بمثل هذه الدلالات ، التى تدعو إلى الإيمان الخالص والفرائض الواجبة ، وفى الوقت نفسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشروط التغيير فى الحياة الدنيا . . وما إلى ذلك من ضرورة الجهاد ضد النفس وضد عدو القيم الإنسانية^(١) .

* * *

مشهد :

يروعنا هذا المشهد الذى التقينا ببعض صوره هنا وهنا ، وهى العلاقة الدالة بين الكعبة وناطقات السحاب . .

فبعد الطواف طويلاً داخل الكعبة وخارجها ، وأداء العمرة لأكثر من مرة ، كان يلفت نظرى دائماً هذا التغيير الذى طرأ على المنطقة ، لقد قرأت كثيراً فى بناء بيت الله ، والتطورات التى حدثت له منذ هبط آدم وسعى إبراهيم ، وصولاً إلى الملك عبد العزيز وخلفائه حتى الآن ، فلم يروعننى هذا القدر من التغيير كما راعنى الآن . . التحول هائل . والتغيير كامل .

وهو تحول أو تغيير يبدو لمن يأتى ليقيم السقوط غائباً ، فمن يأتى إلى هنا - فى الغالب - لا يكون نصب عينيه غير المناسك الدينية ، غير أن من يحاول أن يخرج بعينه أو عقله خارج الكعبة يروعه قدر التغيير الكبير . .

(١) يزخر القرآن الكريم بالوعى بضرورة العيش فى مجتمع يعى شروط وجوده بالتمسك بالعروة الوثقى : ومن ذلك :

- تغيير ما بالقوم : ٨ / ٤٥ - ١٣ / ١١ - ١٦ / ١١٢ .
- الوصية بالآخر داخل الوطن والعقيدة : ٤ / ٣٦ .
- الدعوة إلى الجهاد : ٢ / ١٩٠ و ١٩٥ و ٢١٦ و ٢١٨ و ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٥٢ و ٢٦١ أيضاً ٣ / ١٣٩ و ١٤٢ و ١٤٦ و ١٥٤ - ١٥٨ و ٢٠٠ .

لمزيد : انظر (المعجم المفهرس) لمروان العطية ، وهو فى نهاية طبعة القرآن الكريم ، ط ٦ ، دار الفجر الإسلامى ، دمشق ١٤٠٤ .

ثمة ملاحظة ، لا يجب أن تفلت منى الآن قبل الاستطراد ، ففي الزيارة الماضية ، بعد ١١ سبتمبر كنت ألاحظ أن عربات النظافة ، وقد كانت خاصة بالتنظيف ، وبأعداد كبيرة ، مكتوب عليها (مجموعة بن لادن) ، وفي الزيارة الأخيرة ، اختفت هذه العبارة بلصق ما يخفيها ، فى حين أن المسئولين لم يستطيعوا حذف هذه العبارة من على الملابس ، التى ترتديها عاملات النظافة بشكل خاص ، ربما لكثرة هذه الملابس التى كانت تعد بكميات مهولة .

المهم هنا أن ثمة محاولة لإخفاء اسم (ابن لادن) صاحبت الحملات المعادية للمملكة ، التى كانت تتمتع بقدر كبير من الصداقة مع الولايات المتحدة لعوامل وأسباب استراتيجية ، حرصت عليها الولايات المتحدة فى السابق . . ليس هنا مجالاً للإفاضة فيها . .

وهو ما يعود بنا إلى المسجد الحرام .

إننا خارج المسجد الحرام أمام هذه الناطحات ، والبوتيكات ، بل ومحلات السوبر ماركت والأسواق التى يغلب عليها الطابع الغربى فى المقام الأول ، ثم يتلوه الطابع الآسيوى بعد ذلك سواء فيما يقدم أو فيمن يعملون بهمة ونشاط كبيرين ، يتعثرون فى العربية ، ولكنهم يعملون بدأب شديد . .

على أن التغيير الذى يحدثه مصباح (العم سام) الآن - ليس مصباح علاء الدين - وصل إلى هنا أيضاً ، وقد لاحظنا فى الزيارة السابقة كيف أن مشهد الخروج من الكعبة كان يتلوه - مباشرة - مشهد « كنتاكي » إذ لا تتوقف الحركة فيه ؛ فالرجال يأتون بالأطعمة المعروفة ، والنساء المحجبات يارسن الاتهام والشراء . .

غير أنه يبدو أن العم سام انتبه إلى أن الصورة الضخمة لكنتاكي وملحقاته كانت زاعقة أكثر مما يجب ، ومن هنا ، فقد لاحظنا تغييراً ، ليس فى التوجه وإنما فى الوسيلة .

فى المكان الضخم استبدل بهذه (اليافطة) الضخمة التى كانت تشير - كما لاحظنا من قبل - إلى الرموز الأمريكية فى الأطعمة (كنتاكي) بالبنط الكبير ، ومن

ثم، التحول الثقافي . . استبدل بها عنواناً آخر هو KFC وعادت الياقطة الضخمة إلى المكان نفسه وإن يكن بينط أصغر إمعاناً في الترميز : (دجاج كنتاكي) و (بيتزا هت) وإن لم يخل من الإعلان عما تقدمه سلسلة المحلات الأمريكية للحجاج من وجبات طيبة وخدمات مغرية . .

والواقع أن هذه الرموز الغربية أصبحت أكثر فاعلية في وجود سلسلة الفنادق الضخمة التي قامت - كما فعل أصحاب المطاعم الأمريكية - باستخدام وسائل أكثر خداعاً للزائر ، إذ إن التصميم العربي من شبائيك وزوايا زخرفية عربية وطابع تاريخي عربي احتل الواجهة ، في حين إننا لم نفارق أسماء من مثل (هيلتون) و (كونتنتال) . . وما إلى ذلك .

وفضلاً عن الأبنية الضخمة : الفنادق والمحلات والأسواق الثرية إلى درجة عالية ، نجد - في المقابل - أحياء فقيرة ، مازال ، تعكس واقع (أم القرى) منذ أهملت في القرون السابقة ، وفي المقابل ، فإن ثراء المناطق الفخمة يقابله فقر المناطق الفقيرة ، غير أن أكثر ما يلفت النظر هنا أن الخارج من المسجد الحرام يجد أمامه السلسلة الفخمة من هذه الأبنية ، وهى أبنية تصل في ارتفاعها إلى درجة يتطعم من يسكن فيها - باسم أداء الفريضة أو العمرة - أن يرى الكعبة تقبع في مكان ناء ، يهبط إلى نهاية الأودية التي تتكون منها جغرافية أم القرى ، ويرى الكعبة والطواف حولها ، وكل ما يمكن أن يقوم به المسلم من أية بقعة من العالم .

البشر داخل المسجد الحرام وخارجه .

الرمز داخل المسجد الحرام بما يحمل من أناس فقراء من شتى أنحاء العالم ، والبلاط الضخم خارج المسجد الذي تقيم فيه مثل هذه الجموع البائسة المشردة ، الباكية تعكس لنا (حالة) العالم الإسلامى اليوم .

هل يمكن المقارنة - حين نستعير عصر العولمة - بين السادة ساكنى الناطحات - وهم قلة لكنهم فاعلون أقوياء - والكثرة - وهم كثرة بؤساء باكون ، ثم نمضى مع هذه المقارنة مع التغيرات التي حدثت في العالم عقب عاصفة مناهاتن ، فقترب من هذه

الجموع ، لنفسر أكثر هذه (الحالة) ، بعد أن تحولت العولمة الاقتصادية إلى شيء أقرب إلى (عمكرة العولمة) ليس الاقتصادية وحسب ، وإنما في كل الميادين حيث تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بفرض سيطرتها العاتية على كل فقراء العالم - الإسلامى - وأثريائه من السادة المتعاونين من بين ولاية الأمر من السياسيين ، أو من بين رجال الأعمال الجدد ، ثم الضلع الثالث فى مثلث الهيمنة العسكرية وقد مثله الآن من الفنانين والمثقفين . .

هل ابتعدنا عن العالم الروحى الذى جئنا إلى أم القرى من أجله ؟

لنعد إلى عقولنا أكثر ، فإن هذه النظرة الهوجاء لن يمكننا الإعلان عنها ، أو التعبير بها عما نعانیه الآن ، ولنعد إلى فندقنا المتواضع البعيد عن الكعبة ، الذى يخفى فى الشوارع الجانبية وراء أسوار هذه الأبنية الضخمة من ناطحات السحاب .

على أننى لسوء الحظ ، وفى اليوم الأخير ، أصبت فى حادثة أمام الكعبة ، مما ترتب عليه كدمات عنيفة جداً فى ساقى اليسرى ، ومن ثم ، تحاملت على نفسى ، للذهاب إلى الفندق ، بعد أن عانيت طويلاً فى مستشفى « أجياد » لمحاولة الحصول على علاج دون جدوى .

لحسن الحظ كنت قبل ذلك بقليل قد انتهيت من أركان العمرة : الإحرام والطواف والسعى وواجبات العمرة بشكل عام^(١) ، فودعت الكعبة ، وتهيأت بعد الصلاة للمغادرة إلى خارج المسجد الحرام ، اكتفيت بالعودة إلى الفندق ، وابتلعت عديداً من المسكنات ، واستخدمت كثيراً من المراهم فى ساقى التى كنت أحس بها تزداد ألماً وتورماً ، أنتظر مرور الوقت . . كان بطيئاً مؤلماً وأنا أتهيأ للرحيل من أم القرى إلى مطار جدة .

ظللت الليلة السابقة للرحيل مستمراً فى إعادة تلاوة القرآن الكريم بشكل متواصل ؛ حملت القرآن الكريم بين يدى وظللت أقرأ فيه القراءة الكلية ، بمعنى أننا تعودنا فى مقاعد الدرس أو أثناء القراءات المتفرقة أن نتوقف عند آيات معينة توضع

(١) قد يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن خطوات « العمرة » معروفة وثابتة فى الكتب الدينية . .

أمامنا للدرس أو الفهم ، ومن ثم ، فإن معرفتي - على الجانب الشخصي - كان يشوبها هذا الانقطاع إلى النظرة الكلية للقرآن الكريم ، وحتى حين انكبت لفترة طويلة من حياتي لقراءة (التفسير) القديمة منها أو الحديثة للقرآن كنت أقع فريسة لهذا المفسر أو ذاك ، سواء في تفسيره العام ، الذي لا يخلو من توجه شخصي أو أيديولوجي ، أو من السلفية التي كانت تمتحوذ على عقول الكثيرين . .

كانت الفرصة مواتية منذ خرجت من مطار جدة مروراً بالمدينة أن أقرأ بنظرة شمولية ، مع الوعي التام بكثير من علامات الوقف ومصطلحات الضبط ، فضلاً عن معرفة متواضعة بتجويد بعض الآيات ، ومن هنا ، ظلمت هذه الليلة أحاول أن أكمل الجزء الأخير من القرآن بوعي شديد . .

كانت الآيات تصل بي إلى درجة عالية من العجب : كيف لم أفطن لهذا من قبل ؟ كيف لم أقرأ القرآن الكريم قراءة مستفيضة من قبل ؟ كيف اكتفيت بالشذرات التي أعطيت لنا ؟

ولأن الأمر عندي لا يتوقف عند الجانب الفني أو الإلهي الخالص في النص القرآني ، فقد كنت - بالاندماج عضوياً بالآيات - انغمس في (حالة) المجتمع العربي اليوم . .

أذكر في هذه الليلة الأخيرة أنه استوقفتني أكثر من آية ، وأنا أتأمل الواقع الإسلامي / الشرقي اليوم ؛ الواقع رديء بما يدفع إلى البحث عن المسئول ؛ كيف وصل بنا الحال إلى ما نحن فيه الآن ، كيف أصل إلى أية منطقة في الأرض المقدسة الآن ، فأجد مجموعات كثيرة ، أغلبها يتحدث لغة ليست العربية ، وأغلبها ينادون الله - عز وجل - في بكاء مضطرب وعذاب مستمر ، لإخراجهم من الضيق الذي يعيشون فيه ، كيف انتهت هذه الأمة إلى ما فيه الآن ؟

أسئلة كثيرة كانت تطرح وأنا أتلو . . .

تلوت كثيراً وأنا أجد إجابات كثيرة لأسئلة ، تعبر عن الواقع المؤسى ، الذي تعيش فيه هذه الأمة . . قرأت ودونت في ورق أمامي :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: ٣٣) .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (النحل: ٣٤) .

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤) .

تناهى إلى صوت أذان الفجر ، لم أستطع الذهاب ، تحاملت على نفسى ، صليت فى هذا المكان من الفندق ، لم أغف أكثر من ساعة . .

حملت الأمتعة وجرت ساقى إلى العربة ، واتجهت فى ظلام العربة إلى المطار . كانت الساعة تجاوزت الثامنة مساء ، بدا الطريق الطويل مظلماً بين مكة وجدة ، ومع ذلك ، راقبت الطريق .

بدت المراثيات قريبة مما شهدتها هنا قبل عامين . . أسماء المحلات الأجنبية تكتب إلى جانب العربة ، وبتنوع وألوان كثيرة . .

أذكر فى زيارة بعيدة للرياض أنه كان ممنوعاً أن تكتب أية لغة إلى جانب العربة ، ورويداً ورويداً ، اكتشفت فى الزيارات التالية ، أنه لم يكف باللغة الفارسية أو اللغة الأمهرية ، وإنما وضعت اللغة الإنجليزية جنباً إلى جانب بجانب العبارات العربية فى الميادين والشوارع العامة . كما لم تخطئ عيني عدداً من البنوك الأجنبية فى الطريق ، ولكن ما لفت نظرى أكثر هذه الرموز الأمريكية التى تخترق هذه الضواحي ، فأجدها خاصة فى المحلات الضخمة وفى محطات البنزين ، كما رأيت أكثر من (ماكدونالد) ضخماً فى الجانب الأيسر من الطريق . .

عجبت ، ملت فى ظلام العربة إلى أحد الزملاء ، أشير إليه بمحل ماكدونالد الضخم المرتفع الذى فر من أمامنا إلى الوراء مع سرعة العربة ، كأنى أضبط شيئاً هارباً ، فنظر إلى قليلاً ، ولم يلبث أن دفع إلى بجريدة تصدر فى السعودية :

- انظر ، قال فى ظلام العربة . . إن وكيل « مكدونالد » هنا - وهو عربى - يؤكد لك يا سيدى أن مكدونالد يتشر فى أنحاء المملكة كلها : فى المنطقة الوسطى والشمالية والشرقية .

- سمعت أن الثقافة الشعبية وتمثلها مكدونالد الآن تضاءلت فى المملكة ؛ خاصة عقب أحداث سبتمبر أو قل - أكثر - بعد المجازر اليومية ، التى يتعرض لها أهلنا فى الأرض المحتلة .

- يا سيدى إن المسئولين الكبار يعلنون - وها هى التأكيدات الرسمية أمامك - مبيعات هذه الأنماط المعيشية الأمريكية خاصة هنا لم تتأثر بشيء ، الأكثر من ذلك «وراح يشير بالسبابة إلى ما يكتب أمامى» إن مكدونالد فى السعودية سوف تفتح خلال أسابيع ثلاثة فروع جديدة . . (و) كما تنوى افتتاح ستة فروع أخرى فى المدن السعودية العام المقبل . .

اعتدل الزميل ، وهو يواصل كأنه يعلن شيئاً مهماً ، فيضيف :

- سيصل عدد فروع مكدونالد إلى أكثر من ٩٠ فرعاً .

ولماذا يؤكد إذا وكيل مكدونالد أنه سيتم إغلاق مثل هذه المحلات فى الشرق الأوسط .

غير صحيح . .

ألم تقرأ دفاع عدد كبير من المسئولين فى الشرق خاصة وفى المملكة الآن على وجه أخص دفاعاً حاراً عن هذه المطاعم ؟ ألم تقرأ فى هذه الأيام غضب الأمير . . وزير الداخلية لقيام مجهولين بتفجير مجموعة من مطاعم الوجبات السريعة (التصريح منشور فى الصحف السعودية والكويتية فى نوفمبر ٢٠٠٢) .

قال ذلك ، وراح ينظر إلى الطريق والمحلات الكثيرة ، ومنها الرموز الأمريكية تفر ورائنا .

لم أسأل نفسى كثيراً : هل هذا طبيعى اليوم ، أم أنه يترجم سيطرة الرموز الأمريكية وهيمنة إمبريالية الشر الجديدة المتغطرة فى عالمنا اليوم .

فالإجابة كانت أوضح من أى سؤال . .

السؤال نفسه إجابة كافية . .

إنها شراسة القوة التى تهدد الآن بأن تدمير العراق ، سيتم إن أجلاً أو عاجلاً ،
والتي تؤكد عبر تصريح الكثير من المسئولين فى المشرق والمغرب أن ثمة مساحة من الود
أو الخوف لا تنتهى ، تسمح للقوى الأمريكية الآتية بتدمير عاصمة الخلافة العباسية ،
بغداد .

* * *

حين وقفت العربية أمام مطار جدة ، شغلت بآلام ساقى الحادة ، والأحمال
المتناثرة الثقيلة ، عن أشياء كثيرة أخرى . .

* * *

٣ - مكة .. و « المسجد الأقصى » !!

كنت أقف أمام المسجد الحرام حين أبلغنى البعض هذا الخبر . .

لم أكن لأحب أن أبتعد عن مناخ مكة والكعبة وروائح المسجد الحرام وخصوصية هذه الدائرة المقدسة ، غير أن الخبر الذى تنامى إلى بعث فى - رغم خصوصيته السياسية - مسحة دينية حزينة ، لم ألبث أن اكتشفت أنها تمتد إلى الورا ، إلى أكثر من خمسة عشر قرناً .

الخبر يتنمى إلى القدس . .

والخبر يشير إلى هذه العلاقة بين مكة حيث المسجد الحرام ، والقدس حيث المسجد الأقصى . . ماذا ؟ أكد لى الصديق أن الكونجرس الأمريكى (الكونجرس فى مكة وعجبت من المفارقة) أصدر قراراً يعتبر القدس الشرقية المحتلة عاصمة لإسرائيل . .

أعترف أننى كنت من آن لآخر ، أثناء خروجى من المسجد الحرام عقب كل صلاة ، أتلقت إلى المحلات الكثيرة الفخمة أو المتواضعة بحثاً عن صحف ، لكننى كنت أرتد بالبصر - بسرعة - لأن المكان لا يسمح بتشوف الأخبار الخارجية ، ثم إن المناخ الروحى هنا لم يكن يسمح بالبحث عن الصحف أو التمهّل عند الأحداث ، التى تخرجنا من الحالة الدينية التى نحيا فيها هنا ، أو هذا المناخ الذى كان يعنى هذه الروحية العالية ، وفى الوقت نفسه ، يشى بهذه المسحة الحزينة فى سلوك الذين أتوا - إلى المسجد الحرام من المسلمين المحزونين ، المأسورين فى غابة الاضطهاد فى بلادهم وحملات الإبادة والقتل والترويع . .

فى هذا المناخ كنت كلما سألت عن صحف هنا يجيئنى الرد مباشرة ؛ إما بإشاحة الوجه بغير إجابة ، وإما - برد فاتر - من أن الصحف بعيدة ، هناك ، فى طريق التنعيم بين مكة وقبر السيدة عائشة ، هناك أكثر من مكتبة تراثية ، والمعروف أن هذه المسافة تصل إلى أكثر من خمسة عشر كيلو متراً ، تبعد بنا عن المسجد الحرام ، ولكن . . كنت أتجمد عند (لكن) برهة ؛ لأعود إلى ما أنا فيه من التردد على المسجد الحرام ، والانكباب على قراءة القرآن ، والغياب بين فريضتين - أحياناً - عند باب (عمر) ، وهو ما كان يبعث فى حالة من الفرح كلما عشت بين كل هذا الكم القديم من الكتب ؛ فخلف الباب هناك مكتبة تراثية ضخمة . .

وفى المرتين اللتين ذهبت فيهما إلى (التنعيم) - حيث المسجد الواسع شبه المهجور - لم أكن لأجرؤ أن أهبط من العربة التى استقلها لتعرف ما فى مكتبة على يمين الطريق ، أو المكتبات الأخرى القليلة المتناثرة فى شمال هذا الطريق . .

كنت أسأل بصوت خفيض ، إما لإحساسى من نفسى بالحجل ، وإما لأن من معى لم يكن ليصح لى بشراء الصحف . . أى صحف تبحث عنها ، وأنت أمام الكعبة المكرمة ؟ أية صحف كنت تشير إليها فى هذا المناخ الذى لا يسمح بأى شىء آخر ، غير الغرض الذى جئت من أجله ، خاصة ، أننا مع وفود تأتى فى رعب شديد ، فضلاً عن أن سمة القراءة أصبحت عادة قديمة ذميمة أو غير مجدية .

هكذا كان يصل إلى الصوت الذى يلازمنى كلما تطلعت إلى الصحف .

فى الغالب كنت أصمت ، وأحياناً كنت أنظر من بعيد مستطلعاً ماذا يحدث وراء هذه الجموع ، وخلف هذا العالم الروحى المصمت تماماً أمام أى أخبار خارجية ؛ لأعرف ماذا يحدث فى هذا العالم . .

وأعترف أنني لم أكن لأستطيع أن أصمت وأنعزل تماماً . .

أعترف أنني لم أكن لأستطيع أن أمارس فعل الصمت والعيش فقط فى هذا المناخ الدينى . فحسب . . بل أتطلع إلى رؤية الواقع بعقيدة مسلم ، عليه أن يهتم بأمر المسلمين لقول الرسول (ﷺ) : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . .

بيد أنني أعترف أن خجلتي بيني وبين نفسي وبين الآخرين كان يحول بيني وبين التغيير والتفكير في شيء آخر ، يشغلني عن العبادة والقراءة الدينية . . . ولذلك . . . فإن الخبر الذي تنامي إلى وجد لدى صدي عنيقاً في داخلي : الكونجرس والمسجد الأقصى .

اهتممت ، ومددت يدي لأحصل على هذه الأوراق الذي أهتم بمنحها إلى الصديق ، كان يعرف شغفي بما يحدث في العالم الخارجي .

* * *

كان أول ما فعلته أن وضعت عيني على وكالة الأنباء لأقرأ خبراً طويلاً من واشنطن ، جاء بالحرف الواحد :

« إن الكونجرس وافق على تشريع يجبر الإدارة الأمريكية على المصادقة على قرار يعتبر القدس الشرقية المحتلة عاصمة لإسرائيل . . (و) . . إن الرئيس جورج بوش وقع اليوم الاثنين على قانون يلزم الإدارة الأمريكية بتعريف القدس ، بوصفها عاصمة لإسرائيل . . (و) . . ووضع الكونجرس نص إلزام الإدارة باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل ، ضمن قانون تفويض العلاقات الخارجية لعام ٢٠٠٣ . . (و) . . » .
إلى غير ذلك مما جاء في الخبر الذي بين يدي الآن . .
حملت الأوراق بين يدي واتجهت إلى باب عمر . . .

* * *

القدس عاصمة لإسرائيل . . ؟

كان أول ما خطر على ذهني أن لا علاقة - أية علاقة - بين القدس وإسرائيل . .
إن إسرائيل التي نعرفها الآن في بداية الألفية الثالثة هي مستعمرة للصهاينة من شواذ الآفاق الآتين من بلاد شتى . .

وهؤلاء لا ينتمون إلى العقيدة كديانة سماوية . .

كما أن العقيدة هنا لا تنتمي إلى هؤلاء الآتين ، وهم يحملون معهم طائرات الأباتشي الأمريكية وطائرات ال اف ١٦ وقلوب غليظة ودماراً وذبائحاً ووعباً لم يعرف التاريخ له مثيلاً . .

إن أمريكا تتحدث عما لا تملكه لمن لا يتحقه . .

فكما أن لمملكة بوش الابن الآن عام ٢٠٠٢ تاريخاً وحشياً في السيطرة على الهنود الحمر وإبادتهم قبل قرون ثلاثة ، فإن لمملكة الصهاينة الآن - الآتين من أقطار شتى وبقارات غربية آثمة - تاريخاً وحشياً مازلنا نعيشه في السيطرة على الفلسطينيين ، من أهل البلاد ومعاملتهم معاملة تفوق معاملة الأمريكيين للهنود بمراحل . .

إن المؤسسة العسكرية الأمريكية تهب للمؤسسة العسكرية الصهيونية ، وكلاهما - الأمريكان أو الصهاينة - لا يملكان ما يمنحانه ويمارسانه الآن بأى اسم . . فمن يحاول أن يتحدث عن القدس للغير أو للذات لا يملك شيئاً من التاريخ .

إن الصهاينة الذين يعيشون الآن في الأرض المحتلة ليسوا هم يهود التوراة ، كما أنهم ليسوا يهود التاريخ ، فكيف - إذاً - نسمع لمن يتحدث عن القدس على أنها عاصمة لمن هم خارج التوراة - كعقيدة - وخارج التاريخ - كزمن - ثم نسمع لمن يتحدث عن القدس - زيفاً - على أنها عاصمتهم التاريخية ، فى حين أن التاريخ يتحدث عن يهود آخرين أنثروبولوجيا ، ويهود آخرين عقيدياً . .

إن العلاقة بين من يستعمرون الأرض العربية الآن والعقيدة اليهودية علاقة نفى ، كما أن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى علاقة إثبات . .
وهنا يأتى الحديث عن هذه العلاقة الأخيرة .

* * *

تأتى بعد ذلك تلك العلاقة الأكيدة فى القرآن بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . . بين مكة حيث أقيم الآن ، وبين بيت المقدس حيث أرنو . . وهذه العلاقة تصورها لنا الآية القرآنية ، التى نجدها فى الآية الأولى من سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

الآية الكريمة إذاً تمنح اقتناعاً بالعلاقة بين المسجدين ، وهى علاقة دينية تاريخية لا ريب فيها (بين يدى الآن عشرات من المصادر التاريخية فى مكتبة المسجد الحرام ، التى تؤكد مثل هذه العلاقة : على سبيل المثال من المصادر القديمة . . الأثر فى الطبرى ٢٨/١٥ وابن الجوزى ٩/٥ والدر المنثور ٤/١٦٥ والثعالبى ج٣ والإمام جعفر النحاس ج٤ ، ومن المصادر الحديثة الطاهر بن عاشور ، التعبير والتنوير ج٣ إلخ) . .

وهناك الكثير من المصادر والمراجع التى تؤكد هذه العلاقة الأكيدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . إن هناك حديثاً ينتهى بمصادر عديدة إلى الرسول - ﷺ - فحين يسأل أبو ذر : قال : قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع أول ، فقال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم المسجد الأقصى » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » . ثم إن - وهذا استطراد بدهى لا بد منه - العلاقة بين المسجد الأقصى وبيت المقدس علاقة عضوية .

أضف إلى هذا - فى تأكيد العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، هذه العلاقة الفريدة التى تصورها لنا الآية الكريمة فى وصف ما حول المسجد الحرام ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء: ١) ، فهى الدائرة حول بيت المقدس ، مهما اتسعت أقطابها تظل مباركة ، وهى ليست دائرة ضيقة تخص المسجد الأقصى كنطاق جغرافى وحسب ، وإنما تمتد إلى المدينة نفسها (بيت المقدس) . .

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم يذكر أن القدس كانت - فى أول الأمر - قبلة للمسلمين فى الصلاة ؛ فالرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تلازم بالرحلة من القدس إلى السماء بما يعرف (بالمعراج) ، وقد كان يمكن - كما يذهب كثير من المفسرين - أن يجعل الله - عز وجل - رحلة الرسول (ﷺ) إلى السماء مباشرة من المسجد الحرام دون الذهاب إلى الإسراء ، أى إلى المسجد الأقصى أول ، ثم - فى هذا السياق - تتحدد الأهمية أكثر حين تتقرر الصلاة على المسلمين ، وأن يتقبل صلوات المسلمين فى المسجد الأقصى ، الذى يتجه المصلون إليه ، وهم يتجهون إليه كقبلة ، ويتحضررون الله عنده فى الصلاة . .

والمعروف أن قبة المسلمين الأولى كانت في المسجد الأقصى ، قبل أن تنزل الآية الكريمة بتعديل هذه الوجهة :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤) .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٩) .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٥٠) .

وقد يكون من المهم أن نشير إلى أمر بدهى ، يسعى البعض إلى تزييف الوقائع التاريخية فيه ، وهو ما يمثله عدد كبير من الكتاب الصهاينة اليوم ، ممن يدعون أن المسجد الأقصى ليس في القدس (وهو ما تردده كتب الاستشراق الصهيوني) ، فمن البدهى أن بيت المقدس هو المكان الذي وجد في المسجد الأقصى ، وكتاب معاني القرآن الكريم للإمام أبي جعفر النحاس ، كما أن البخاري وعديداً من جامعي الأحاديث الصحاح يؤكدون هذا المعنى ، ففي بعض هذه الأحاديث نقرأ من قول الرسول (ﷺ) قال : « قمت في الحجر لما كذبنى قومي ، ليلة أسرى بي ، فأنيت على ربي ، وسألته أن يمثل لي (بيت المقدس) فرفع لي فجعلت ألفت لهم آياته » وهو ما جاء في البخاري ومسلم والترمذي بمعنى قريب من هذا ، نقرأ في كل مرة (حديث صحيح حسن) .

وحتى الأحاديث التي تذكر الآية الكريمة : ﴿ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ (الإسراء: ١) تتفق جميعاً على أنه بيت المقدس (تتفق في هذا تفسيرات الطبري ٤/١٥ والبغوي ٤/١٢٧ والقرطبي ١٠/٢٠٦ والرازي ٢٠٠/١٤٦ .. إلخ) .

ومن يراجع الأحاديث والتفسيرات القديمة والمعاصرة يعثر على هذه الحقيقة : أن المسجد الأقصى هو بيت المقدس ، ويخصص لسورة الإسراء بشكل خاص مساحات كبيرة بهذا المعنى فى المصادر القديمة والحديثة ، ولأهمية هذه السورة نجد اسمها فى المصاحف القديمة . . إنها سورة بنى إسرائيل ، بينما تأتى فى المصاحف الحديثة باسم (الإسراء) وسورة (سبحان) يتفق فى هذا الطاهر بن عاشور حديثاً ، وقبله الترمذى قبل ذلك .

ويلاحظ هنا بشكل خاص أن الطاهر بن عاشور كان أكثر من غيره من المفسرين ، ممن توقف عند هذه العلاقة الأكيدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى بهذا الشكل ، فهو يشير إلى الدلالة الدينية فى فائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته ، فضلاً عن التشريع الاجتماعى (يمكن العود هنا إلى التحبير والتنوير خاصة ج ٣ ص ١٦) راصداً هذه العلاقة الأكيدة بين المسجدين فى هذا السياق .

إن المسجد الأقصى هو ثانى مسجد ، رفع قواعده إبراهيم - عليه السلام - كما ورد ذلك عن النبى - ﷺ - فى الصحيحين عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع أول ، فقال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم المسجد الأقصى » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » . فهذا الخبر قد بين أن المسجد الأقصى رفع قواعده إبراهيم لأنه حدد عبره ، وهى من مدة حياة إبراهيم - عليه السلام - وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام .

ورغم أن الطاهر بن عاشور يقط فى محظور الإسرائيليات فى التفسيرات السابقة ، ويتمهل أحياناً عند التوراة ليوسع من تفسيره ، فلا يلبث أن يرتد إلى العلاقة الوثيقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى أولاً ، ثم يؤكد أن المسجد الأقصى هو كناية عن بيت المقدس ، وليس منفصلاً عنها ، كما يذهب عديد من المشرقين الصهاينة المعاصرين ، الذين ينتمون إلى الأجهزة المخبراتية والمؤسسة العسكرية الصهيونية فى آن واحد .

وهل نحتاج إلى برهان لنذهب إلى أن المسجد الأقصى هو القدس ، وأن قرار الكونجرس الأخير هو قرار طبعى .

إنما غير الطبيعي فيه ألا نلتفت إلى العلاقة الأكيدة بين المسجدين .

وأن العلاقة بين المسجدين هي التي يجب أن تدفعنا إلى التنبيه - أكثر وأكثر - إلى أن القدس ليست مدينة عربية وحسب ، وإنما هي مدينة تحمل رموزاً عقيدية كثيرة ، تجاوز كل الأحداث المعاصرة .

إن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى لا تحتاج لبرهان ، وإنما ما يحتاج إلى برهان هو من يقول لنا متى يصحو هذا (العالم) الإسلامي ؟ متى ؟

* * *

٤ - جدة بين عصرين

الطريق إلى جدة :

هبطت الطائرة البوينج ٧٤٧ فى ميناء جدة الجوى (مطار الملك عبد العزيز) صباح الخميس الثانى والعشرين من فبراير ٢٠٠١م الموافق الثامن والعشرين من ذى القعدة ١٤٢١هـ ..

كنت بمجرد أن هبطت إلى مطار جدة قد عانيت من حادث عنيف ، وإن وصفته بالاستثنائى ، كان قد أضاع كثيراً من راحة نفسى هنا . .

ولصعوبة هذا الموقف ودلالته ، سوف أرجئه شخصياً ، لأصل إليه فيما بعد .

كانت المفاجأة الأولى لى أن مدينة جدة - على عكس ما تعرفتها فى كتب الرحلات القديمة والقريبة - مدينة متألثة ، على قدر كبير من التصميمات الحضارية الغربية ، وتكاد تخلو من أى أثر عربى ، اللهم ما تعكسه ملابس العرب ممن يرتدون الأثواب العربية والشماغات المميزة ، ثم شكل النساء السعوديات اللائى يغالين فى تغطية وجوههن ويكاد اللون الأسود يسود سيادة كاملة لدى النساء اللائى لا يظهر من وجوهن أى ملمح آخر .

لم أكن لأستطيع أن أبعد الصور التى تعرفتها فى الكتب القديمة والحديثة حيث كانت - إلى حد بعيد - تعاني من التخلف والأبنية القديمة ، بل إن كثيراً من الرحالة أسهبوا فى أن ميناء الهبوط كان يتعد عن الميناء الفعلى الذى تبدأ منه الرحلة المقدسة .

وجدة - جغرافياً - تقع فى المنطقة التى تلى سلسلة الجبال من ناحية الشرق ، وهى تتكون فى أغلبها - كما سنرى - من مرتفعات (رسوبية) ، كذلك تشتمل على كتلة من الجبال النارية وعدد كبير من التلال المرتفعة ، ويمكن أن تحدد مساحتها وراء

جبال الحجاز إلى نحو ٢٠٠ ميل ، وفيما بين الشمال والجنوب إلى ما يقرب من ٩٠٠ ميل ، ويتراوح ارتفاع هذه المنطقة ما بين أربعة آلاف قدم وستة آلاف قدم .

ورغم هذا المناخ العام فإن المتجه إلى مكة يجد عديداً من المراعى الشهيرة الخصبة والواحات الغنية والمزارع الواسعة .

ونستطيع أن نتذكر فى هذه المنطقة عديداً من أشعار مجنون ليلى والفرزدق وجريز ، وقبلهم عرفت أشعار امرئ القيس والحارث بن حلزة وزهير وعنترة . . وغيرهم .

ورغم أن جدة بدت فى الكتب القريبة أكثر معاصرة فى مبانيها ، وطرقها إلى حد بعيد ، فإنها لم تفقد هذا الشكل الذى تأخذه الموانئ الشرقية القديمة مع دخول الكثير من المعالم والتصميمات المعمارية المعاصرة التى بدت مميزة فى مناطق كثيرة منها ، ففيها مناطق تقترب من المناطق الغربية لسرعة سريان مظاهر الحضارة الغربية فيها ، وإن لم تخلو من الأحياء القديمة فيها ، وفى الوقت الذى توقفت فيه أمام بنك يسمى بالبنك الأهلى التجارى على درجة عالية من الرقى التجارى إلى حد بعيد ، ما لبثت أن وقفت فى منطقة قبل نصب أثرى أمام عديد من البيوت العربية القديمة بمشربياتها ومشرفياتها العتيقة جداً . .

ورغم أننا وصلنا إلى جدة فى أقل من ساعتين من القاهرة إلى هذا الميناء ، فإن الرحلة إلى جدة (وهى مفتاح الوصول إلى مكة) ، فيما سبق ، كانت تستغرق أياماً طويلة أو شهوراً من البلاد البعيدة .

وتسهب الكتب القديمة فى الملامح الجغرافية لدروب الحج الطويلة التى كانت تؤدى إلى جدة ، وأشهرها كان درب الحج العراقى ثم درب الحج المصرى ثم درب الحج الشامى ، وويضاف إلى هذه الدروب دروب أخرى أبعد هى درب الحج المغربى ودرب الحج الهندى .

كانت الصورة العامة التى تنقلها لنا رحلات الحج القديمة أن القافلة المتجهة إلى الحج كان يصحبها فى الغالب حملة مكلفة بحماية الحجاج ، فأوليا جلىبى التركى

يذكر - على سبيل المثال - أن أشقياء العربان والبدو كانوا يهاجمون الحجيج كل سنة وينهبون متاعهم .

ومن هنا ، كانت هذه الحملة تسليحاً كاملاً خاصة في العصر العثماني ليحمي الحجاج - فضلاً عن تأمين حاجياتهم - في طريق خطرة .
وهذا كان الطابع المميز لرحلات الحج لقرون كثيرة .

ونقف هنا عند عدة رحلات حتى نهاية القرن العشرين لنرى مستويات التفاوت في استقبال الحجاج لجدّة في طريقهم إلى مكة لأداء المناسك . .

تقول الكتب القديمة إنّ رحلة الحج المصري - على سبيل المثال - كانت تخترق سيناء في رحلة طويلة ، ولم تكن - في الغالب لها محطات ثابتة - غير أن الثبات في مسلك طرق الحج استمر لمدة قرون وصلت إلى خمسة قرون . .

كانت الرحلة تبدأ بتجمع الحجاج من أهل مصر والمغرب والسودان في منطقة يطلق عليها « بركة الحاج » ، وهي تقع الآن شرق المرج حيث كانت تقوم بها سوق للجمال ومنطقة تسوق ضخمة ؛ ففي هذه المنطقة كان يستيقظ الحجاج في الفجر ليسيروا في صحراء السويس مارين بقلعة « عجرود » التي تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، والتي كانت تعتبر أول محطة على درب الحج حيث توجد بالمنطقة بئر محفورة في الصخر . . ولا تلبث قافلة الحجاج بعد التزود بالماء والمؤن بعد أن تدخل إلى سيناء من شمال مدينة السويس مروراً بمنطقة صحراوية وسهلة كثيرة ؛ لتصل القافلة بعد معاناة طويلة إلى مبتها .

ويصف لنا بتس طريقاً أخرى للحج ، تأتي من أقصى المغرب العربي .

يصف بتس في نهاية القرن الماضي (١٨٦١) إحدى هذه الرحلات ، فيضع أيدينا على الطقوس والطرق التي كانت تسلكها القافلة في أي درب ، فحين يشير إلى القافلة المغربية يشير إلى أنها كانت تتحرك من فاس ومراكش ، حيث يتجمع الحجاج في هذه القافلة ويلتحقون بها من سائر بلاد المغرب ، وهي قافلة برية في الأساس ، وعندما يصل الحجاج لمصر يدبرون أصل وصولهم إلى مكة المكرمة والعودة لمصر مرة أخرى .

ويصدر أمير الحج أمراً للقافلة بالتوقف في كل مدينة يمر بها ، ليتيح الفرصة لمن يرغب للالتحاق بالقافلة ، ويستقبل أهل المدن التي تتوقف عندها القافلة أمير الحج ببهجة بالغة لمكانته الدينية ، فسعيد هو من يستطيع تقبيل يده ، فإن لم يستطع فعباؤه ، ويمضى أمير الحج في موكب فاخر تصحبه الأعلام والطبول ، ليس هذا فحسب بل إن النسوة يتزاحمن فوق أسطح المنازل ، التي يمر أمامها موكب أمير الحج ، لرؤية المنظر البهيح ، وتزغرد النساء ويصبح الأطفال بفرح . . وما إلى ذلك ، مما يعكس طبيعة هذه الرحلة المقدسة التي كان يسعى إليها الجميع أو يحتفنون بها .

وقد بدت جدة - وإلى بداية القرن العشرين - مختلفة إلى حدٍّ بعيد سواء في أبنيتها القديمة أو شوارعها غير المنظمة فضلاً عن أن ماء الشرب فيها كانت (غير صالحة للشرب) .

المهم هنا أن كثيراً ما اختطت بمناسك الحج كثير من البدع والوثنية ، على سبيل المثال التعلق بكسوة الكعبة بشكل يتحمل من يتعلق بالضرب العنيف من خلفه حتى ينتهى من التقييل ، والتعبير عما يُريد . يقول أحد رحالي بداية القرن العشرين أنه بعد أن يأتي عدد كبير من الناس ليقبلوا الحجر ويتعلقوا بالكسوة ، أتت نساؤهم لتقبيله ، فيضرب الزود رأس امرأته لتضطدم جبهتها في الحجر ، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج . . وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته :

- حجيت يا حاجة .

فتصيح قائلة :

- حجيت حجيت .

ثم تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة :

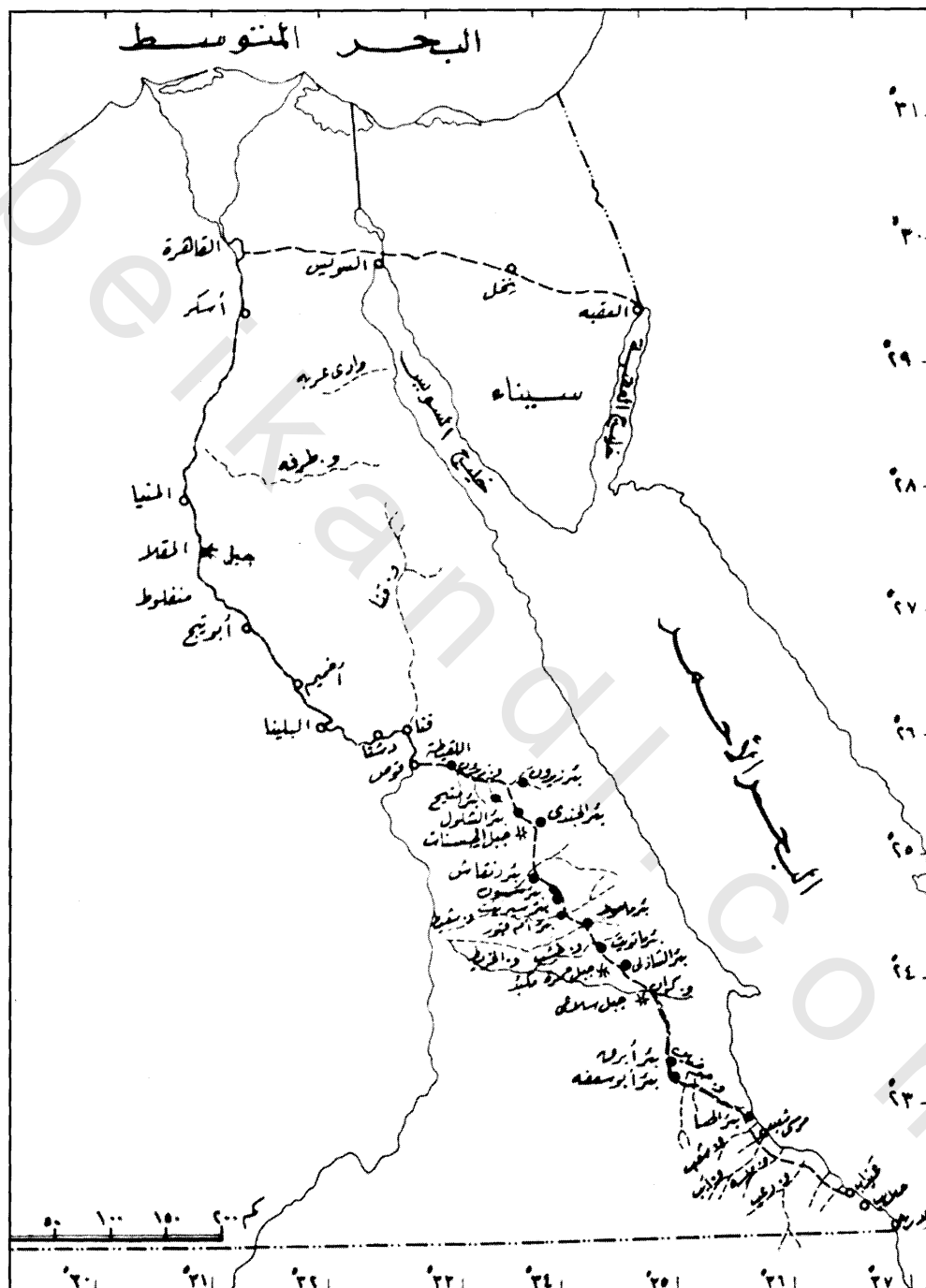
- حجيت ، خبر ربك أنى حجيت .

ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة :

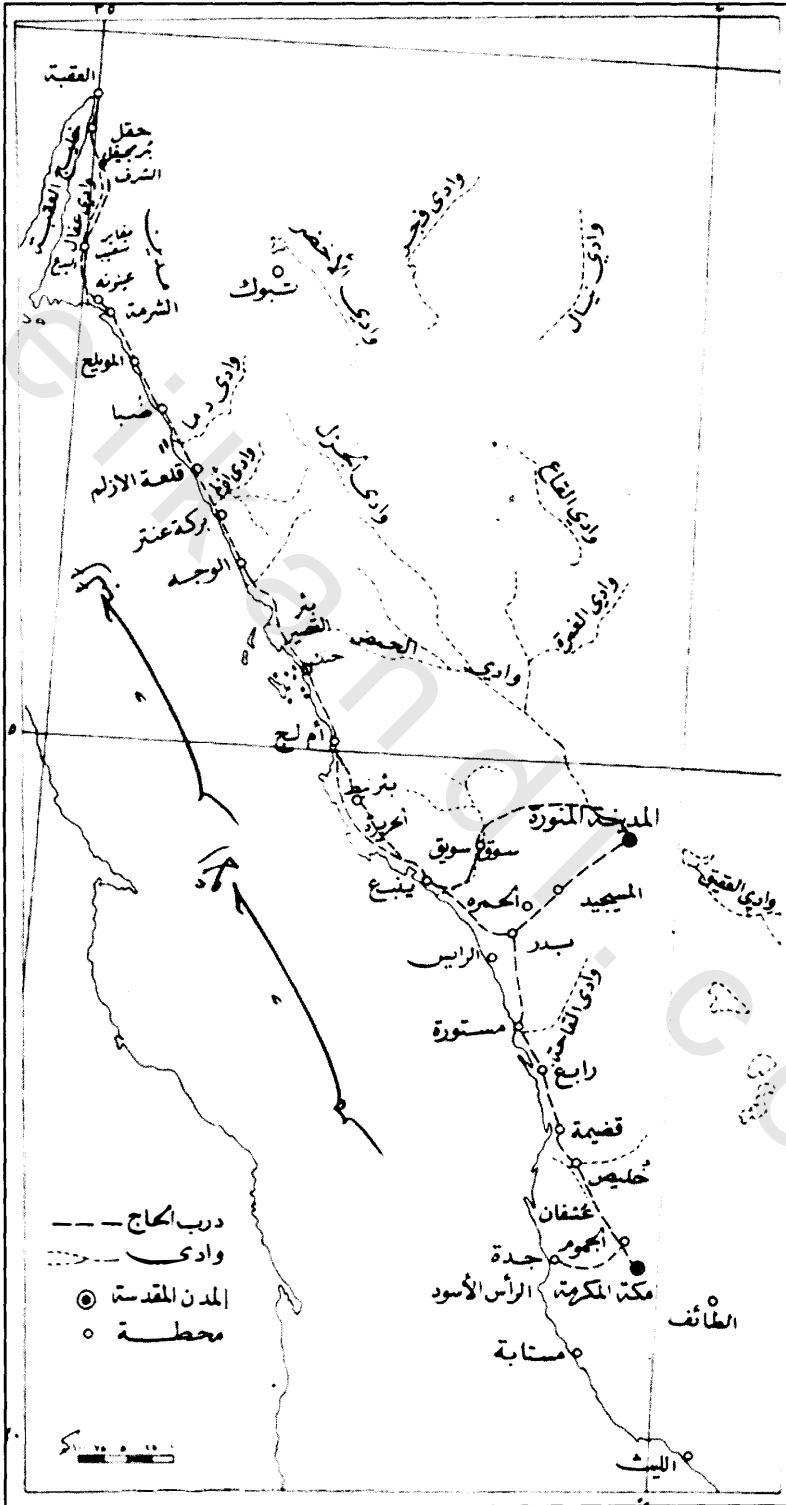
- تقبل أو لا تقبل حجيت ، ألا تقبل ، غصباً تقبل !!

ويقول البتانوني هنا الذي زار الحجاز أواخر ١٩٠٩ أن هذا كله قبل وقوفهم بعرفة . ومنه نرى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجّوا بمجرد الطواف واستلام الحجر قبل الوقوف ، إنما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الإسلام . .

طريق القاهرة عيذاب



طريق الساحل



وهو يذكر كثيراً من مظاهر هذه الوثنية التى كنا نعرفها فى بداية القرن العشرين ، مما يعكس - بشكل عام - التخلف العقيدى فى العالم الإسلامى ، وهو جزء من التخلف العام ، الذى كان العالم الإسلامى يعانى منه ، رغم بداية حركات النهضة فى بعض أنحائه .

ونعود مرة أخرى إلى قوافل الحج . .

* * *

وقد تحولت رحلة الحج وقوافلها إلى البحر مع الوقت ، ففى الثلاثينيات - على سبيل المثال - كانت تخرج السفينة من خليج السويس لتمخر الطريق البحرى حتى تصل إلى جدة .

وقد رأيت أثناء زيارتى إلى الرياض منذ سنوات فيلماً تجلياً فى جامعة الملك عبد العزيز لإحدى هذه الرحلات ، التى كانت تقوم من مصر . والمهم هنا ، أن الرحلة قامت بتصويرها وتسجيلها مصر من استوديو (نحاس) المعروف ، وقد رأيت كيف كان الحجاج المصريون من (الأفندية) بوجه خاص يتجهون إلى جدة فى هذه الرحلة ، وفى حين كانت مظاهر الحضارة بادية للعيان فى الجانب المصرى - تصوير فيلم تسجيلى ، ركاب من الأفندية والمسؤولين ، مظاهر الحضارة التى كانت قد وصلت مصر فى هذا الوقت . . إلخ - حتى تصل السفينة إلى الميناء ، فإذا بنا فى الجانب الآخر أمام مسئولين من السعوديين يرتدون الملابس العربية الرسمية ، وفى الوقت نفسه لا نخطئ هذا التدهور فى الخدمات على الميناء ، والفاقة التى تعم بها البلاد ، ومع ذلك ، كان الطريق البحرى يعانى من أخطار الطريق البرى .

فما كانت تعانيه دروب الحج البرية ، كانت تعانيه الطرق البحرية ، فكثيراً ما هددت السفن - على سبيل المثال - بالقراصنة فى عرض البحر ، وكثيراً ما يخشى الطريق البحرى خاصة فى أزمنة الحروب ، وقريب من هذا ما يذكره محمد حين هيكّل فى رحلته إلى الأرض المقدسة .

يذكر محمد حين هيكّل في الثلاثينيات أن تخوفه الأول من الرحلة بحراً كان مما يشاع من أن السفن الإيطالية - إبان الحرب - كانت بالمرصاد لأي سفن أخرى في البحر ، مما يهدد سفن الحج بالخطر . .

وحتى حين كانت تصل السفينة إلى شاطئ في جدة ، كثيراً ما كانت تعاني من الصدمة بإحدى جزر البحر ، يقول هيكّل إن السفينة التي كان يقلها مع غيره اصطدمت بشعب من شعاب البحر الأحمر الناتئة بجدة ، هذه الشعاب المعروفة للملاحين جميعاً . لذلك لا أدري كيف دفع الربان السفينة إليه في لحظة النهار وضوء الشمس .

وقد كان الخطر في الثلاثينيات كبيراً على النحو الذي يصوره لنا صاحب (في منزل الوحي) حتى إنه ساد الباخرة صمت رهيب بعد ضجة التكبير والتهليل التي أعقبت الصدمة . . وكان جلُّ تساؤل الركاب عن « مبلغ الخطر » وهو يوشك أن يدهمنا ، ولم يقتصر الأمر عند خوف الركاب المسافرين وإنما رجال الباخرة الرسميون ، الذين يخفون عن الأنظار لمدة أربع ساعات حتى اختفى الخطر ، أو كاد يختفى . .

و حين نصل إلى نهاية القرن العشرين ، نلاحظ مع هوفمان (١٩٩٢) أن الطائرة التي تقل المسافرين إلى جدة ، والتي كانت في الماضي تسير - في درب الحج المغربي - قرابة عام في الطريق إلى هذا الميناء ، تصل في ساعات قليلة إلى جدة ، مروراً بذاكر عبر صحارى ليبيا الشاسعة والسودان .

ويلاحظ أنه بدلاً من الموسيقى « المخدرة » التي اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات ، تبعث من أجهزة الاستماع بالطائرات آيات من القرآن الكريم . .

ويكون على رحلة الطائرة أن تصل إلى منطقة (الميقات) حيث يرتدى الجميع ملابس الإحرام وينتهيأون للهبوط في إحدى مطارات جدة الخمسة ، حيث تبدأ المناسك الدينية تزيد رويداً رويداً حتى يدخل الجميع إلى منطقة الإحرام . .

وهو قريب إلى حد بعيد من رحلتنا التي هبطت بعد أكثر من أربعة عشر قرناً من الهجرة النبوية إلى مطار الملك عبد العزيز في مكة المعاصرة في مساء ذلك اليوم ، بعد تأخير طويل اضطرت إليه الطائرة الضخمة حتى يكتمل قدر كبير من ركابها . .

كانت الطائرة البوينج ضخمة ، فى وقت كان عدد من يقلها قليلاً ، ومن ثم كان لابد من الانتظار ، وهو انتظار أو لنسمه بدقة شديدة (تأخير) كان لابد منه لتصل الطائرة إلى الميناء ، الذى رأيناه من أعلى - قبل أن تهبط - منطقة شاسعة من الأنوار الحديثة والأبنية المعاصرة .

لم تكن هذه هى جدة التى تعرفت عليها فى عديد من الكتب والرحلات ، وإنما هى مدينة معاصرة إلى حد بعيد . . (لابد من الخروج من جدة) . . الخروج من (باب) مكة إلى أيام التشريق .

* * *

obeikandi.com

٥ - الطريق إلى مكة

مكة / بكة :

.. فجاشت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم
وانفعلت بهذه الذكريات فبكى وهو بجنب
الكعبة، وقال : « يا عمر : هنا نكس العبرات » .

بدأ الخروج إلى مكة مساء السبت (٣ مارس ، ٨ ذو الحجة . .) لتتوجه المجموعة
الكبيرة من القنصلية المصرية بجدة إلى مكة بملابس الإحرام .
وعلى الرغم من أننا لم نتوقف طيلة الأيام الماضية . . عن المجيء إلى مكة . . فإن
المجيء هذه المرة كان بنية (القدوم) أى الطواف والسعى ، ومن ثم ، بدء المناسك
الحقيقية .

وسرنا فى طريق طويل على جانبيه الجبال المرتفعة السوداء فى الليل ، وأخذنا فى
طريقنا نردد الدعاء المعروف بشكل جماعى :
(لبيك اللهم لبيك / لبيك لا شريك لك لبيك / إن الحمد والنعمة لك والملك .
لا شريك لك) .

ولم تكن مكة مدينة مثل أية مدينة . .
كانت تختلف كثيراً عن (كل) المدن الأخرى سواء فى المناخ أو السكان أو البيئة
أو الموقع . . إلى غير ذلك مما تتميز بها هذه المدينة .
تقول المراجع إن مكة تقع فى السفوح الدنيا لجبال تسمى السروات ، وهى بهذا
تمثل نقطة الالتقاء بين تهامة وتلك الجبال . .
وموقعها يلعب دوراً كبيراً فى تميزها أو اختلافها .

إنها تقع على درجة عرض ١٩ ٢٥ ٢١

وخط طول ٤٦ ٤٩ ٣٩

ولا يزيد ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر .

أما موقعها الجغرافى ، فإن القاعدة فيها تشكل معظم الجبال التى تحيط بالمدينة ، وتمثل الأودية ما بقى من مساحتها ، وأوديتها تقع بين جبالها . .

وأكثر ما يلفت النظر إليها أنه يغطيها ترسبات من الحصى والرمل والطين ، وكان أكثر ما يلفت نظرى ، وأقفُ كثيراً لأحديق فيه ما يغطى جبالها الملتفة حولها من صدوع وترسبات كثيرة حتى تبدو من بعيد كأنها كتلة جبلية سوداء ، وحين يقترب المرء منها يلحظ أن هذه الكتلة السوداء يغلب عليها التركيب الجرانيتى .

على أن هذه الانكسارات المستمرة كادت تمتد فى كل أنحاء هذه الجبال بشكل يلفت النظر قلما رأيته فى منطقة أخرى ، حتى أننى كثيراً ما كنت أقترّب من هذه الكتلة الجبلية أو تلك لألحظ أن الانكسارات تصل من الصغر أحياناً درجة كبيرة ، كما أنها تزيد فى المناطق العالية خاصةً ، حتى كان يلح علىّ أن أتأمل لساعات هذه الجبال البعيدة فى أشكالها .

فعلى الرغم من أن أشكالها المتكررة تبدو أنها من فعل الطبيعة التى تشكلت فى الأزمنة الجيولوجية القديمة ، فإن الخيال كان يمثل لى أن (كلّ) هذه الانكسارات ترسم أشكالاً كثيرة لا تخلو من معانٍ ، كأن أرى تمثالاً ضخماً وحوله عدد هائل من التضاريس والصخور المتكررة ، رغم أن الشكل العام لا يزيد عن كتل جبلية تكونت بفعل التغيرات التاريخية والجيولوجية القديمة (انظر على سبيل المثال : الشكل العام لجبل الرحمة كمثال) .

والرحلات القديمة كانت تصف الطريق بين نجد ومكة ، بأنه طريق طويل تحده صخوراً من كل ناحية وظهور البدو المسلحين من آن لآخر ، فإن الطريق فى هذه الفترة عبّد تعبيداً كبيراً . وزخر بوسائل المواصلات والكابلات والمحلات الضخمة .

كما أن المناخ يعكس مثلاً لهذا التفاوت ، فالمناخ فى مكة يمثل منطقة انتقالية عن تأثيرات مناخ البحر المتوسط والمناخ الرسمى ، خاصة لتأثرها بالقرب من البحر الأحمر . .

وأكثر ما يميز مكة أن درجة الحرارة فيها عالية ، حتى أن كتب الرحلات القديمة كلها كانت تشكو من الحرارة الشديدة التي تعم المنطقة ، حتى أن كثيراً من الحجاج كانوا يلقون حتفهم لدرجة الحرارة المرتفعة ، وإن كانت هذه الدرجة هذا العام بشكل خاص لا تصل إلى هذه المعدلات العالية . .

وعلى أية حال ، فإن معدل الحرارة السنوى يصل إلى ٣١° ، وأمطارها تمثل نموذجاً خالصاً للأمطار الصحراوية المتصفة بعدم الانتظام فقد رأيت المناخ الحار مرات ، ورأيت هطول الأمطار التي استمرت لساعات مرات أخرى ، طيلة وجودى فى المدينة هذا العام .

وإذا أردنا أن نتحدث عن مكة ، فإن الاسم يمكن أن نعود به - مثل أغلب أسماء المدن - إلى كلمات ومصطلحات ولغات كثيرة ، غير أنه من المؤكد أن مكة نفسها تعود لتضرب بجذورها إلى أعماق أعماق التاريخ ، ففيها تعرفنا كثيراً من القصص الأولى للبشرية ، وتعرفنا أحداث كثيرة من الأنبياء قبل بناء البيت أو بعدها ، ويذكرها القرآن بأكثر من اسم لا يخلو من هذا الأثر التاريخى ، فهي مرة مكة التي تقع وسط سلاسل الجبال الشاهقة حولها ، فى الآية الكريمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ۖ ﴾ (الفتح: ٢٤) .

وهى مرة أخرى بكة بحكم تاريخها القديم وأهميتها الزمنية فى الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۖ ﴾ (آل عمران: ٩٦) .

وهو ما تشير إلى عديد من الدراسات القديمة أو الرحلات الجديدة حيث تمثل مكة (أم القرى) مركز الأرض (كما يلاحظ بيرتون) وهو معنى ، لا يحمل بعداً روحياً فقط ، وإنما - كذلك - بعداً جيولوجياً خالصاً ، ولكنه فى القرآن الكريم يشير فى عديد من آياته إلى البعد العقيدى الخالص ، نقرأ على سبيل المثال :

﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۖ ﴾ (الأنعام: ٩٢) .

وفى موضع آخر :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ (الشورى: ٧) .

حول الحرم :

بالعودة إلى كتب الرحالة والدراسات الجغرافية القديمة ، نجد أن التطور العمرانى لم يصل إلى أوجهه فى مثل الفترة التى نعيش فيها ؛ فعلى الرغم من أن مدخل مكة من طريق جدة لا يبدو أنه تأثر كثيراً بالحركة العمرانية الكبيرة الرسمية ، فإن الحرم المكى بشكل خاص شهد تطورات عمرانية وتوسعات كبيرة لا يمكن إغفالها ، سواء تمثل فى الطرق الدائرية أو الأنفاق أو الجسور والكبارى فى الخارج أو التغييرات الهندسية والحضارية الراقية فى الداخل .

والذى يحاول أن يرصد لهذه التطورات ينتهى منها إلى نتيجة مهمة أن التوسع فى منطقة الحرم وما حولها زاد بشكل كبير ، حتى وصل إلى أطراف المدينة حتى إن حدودها تصل إلى المناطق النائية منها حولها مثل وادى فاطمة وعين شمس والجعرانة شمالاً ، ثم على طريق الليث من الجنوب ، ثم الشرائع العليا ووادى نعمان من الشرق ثم إلى برة والشمسى غرباً .

ويلاحظ البعض أن المنطقة التى تقع فى الشمال الشرقى والشمال الغربى من مكة تزخر بحركة عمرانية عالية ، وهو ما يعود تاريخياً إلى أن قوافل الحج قديماً وإلى وقت قريب كانت تصب إلى مكة من هذه النواحي (على سبيل المثال الطريق العراقى وما وراءه) و (الطريق المصرى وما وراءه) . على أنه لا بد أن نعتزف أن الثورات البشرية والمعمارية نالت مكة ، وخاصة المنطقة الممتدة حول الحرم المكى بشكل خاص .

وعلى الرغم من أن المراجع القديمة تشير إلى أن مكة كانت ميداناً للصدام بين المذاهب الإسلامية مرة ، ثم الصدام - فيما بعد - بين أصحاب المذهب الوهابى وبعض السنيين من المسلمين ، بل إن البعض يذكر أنه رأى حوانيت قائمة بالمسعى بين الصفا والمروة تباع الخمر ، وإن كانت لا تعرضها للبيع إلا ليلاً (هيكال ١٣) ، فإن هذه

الاختلافات وتلك الانحرافات اختفت تماماً اليوم من المدينة ومن الحرم نفسه ، وبدا مناخ من الصفاء الروحي والمادى يشوب الحرم . .

غير أن هذا الصفاء فى داخل الحرم خالفته مظاهر كثيرة حوله تسمى إليه . .

ففى حين بدا بعض الرحالة يعيب وجود بعض المطاعم ومحلات الصرافة . . وما إلى ذلك فى الحرم وحوله ، فإننى رأيت أشكالا كثيرة من المحلات الفخمة ، بل وجدت حول الحرم - من جميع الأبواب - عدداً هائلاً من البائعين من شتى أنحاء العالم - وخاصة من جنوب شرق آسيا ، ممن يجلسون فى عرض الشارع بالعشرات ، ويبيعون كل ما لا يخطر على البال للحجاج والمتبركين بالحرم المكى ، بل إن الزائر للحرم يروعه أنه أمام الأبواب الرئيسة فى أمامية الحرم ، حيث باب الملك عبد العزيز وباب الملك فهد منطقة زاخرة بأعداد مهولة من (السوبر ماركت) بأنواع كثيرة لكل المشتروات ، وحركة تجارية قلما نجدها فى أكبر العواصم الكبرى . .

والغريب هنا ليس العدد الكبير من البائعين ، وإنما المحلات الفاخرة ، والأشياء الثمينة التى تباع لكل المستويات ، بل هناك أشكال من الكافيتريات (وليس المقاهى) ، كما كان يقال عنها قبل الثلاثينيات . . هذه المحلات الأفرنجية الجديدة تفرع الخارج الحرم . .

أضف إلى هذا عدداً هائلاً من المطاعم ومحلات بيع أصناف الطعام بجميع درجاتها حتى إن (العولة) بمظاهرها الفجة ، يمكن أن نجدها فى مواجهة الحرم بأهم محلاتها على الإطلاق (وهو ما نرجأه للتوقف عنده أكثر فى نهاية هذه الرحلة) . .

الأكثر من هذا جلباً للحزن هذه العمارات والبنائات الكبيرة التى تحق الآن بالحرم المكى ، لم تعد القضية قضية الحرف التقليدية التى عرفتها المنطقة ، ولا الهدايا التى تباع لضيوف الرحمن أو أشكال الخزف مما يلقى فى تيار الوازع الدينى ، وإنما أصبحت هذه البنائات الضخمة (التى تحاكي بنايات واشنطن وإسبانيا) تلفت النظر ، ليس لفخامتها فقط ، وإنما لضخامتها التى أخذت تعلو ، وتحلق حول المسجد ، حتى أنه فى يوم الانتهاء منها سوف تتحول المنطقة المحرمة (الحرم) إلى بقعة فى وسط هذه الأبنية الضخمة ، سواء أكانت فنادق ضخمة أم بنايات حكومية . .

وهذه البناءات لا نجد لها أمام الحرم أو حوله فقط ، وإنما هي تمتد - مع طرف البصر - إلى الجبال المحيطة بالحرم ، فتقترب منها ، بل وتقام عليها ، وتزخر بأشكال الزخرفة بالقدر الذى تزخر فيه بأشكال من الوجاهة ، التى لا تليق بأن تكون فى هذا الموضع قط .

وقد لاحظ محمد حسين هيكمل فى الثلاثينيات هذا النمط الذى يقترب من الغرب فى كثير من مظاهره حول الحرم المكى ، بل وفى مكة ، فقال على شكل تساؤلات دالة ، يقول : « على أية صورة تكون صوبة شباب مكة إلى الحياة الحديثة فى هذه البيئة المحيطة بهم ؟ وما هذه الحياة الحديثة فى نظرهم ؟ أهى حياة الفكر الحر ؟ كما يصور الفكر الحر ؟ أهى حياة العلم والبحث العلمى كما نراها نحن فى مصر أو كما يراها أهل أوروبا ؟ أهى حياة الصناعة وتسلطها على قوى الطبيعة وإخضاعها إياها لإرادة الإنسان ؟ أم إنها ليست هذا كله لأن هذا كله لا يتفق وحياة مكة وتفكير أهلها وقدسيتها ما فيها ، وإنما هى نوع آخر أدى إلى ما يسمونه أدب القوة وأكثر إيماناً بأن الأمم الأخلاق الحقيقية إنك لا تستطيع أن تعرف . وشباب مكة أنفسهم لا يعرفون أيّاً من هذه الحياة الحديثة يأخذون ، وأية ناحية منها يدعون » .

والواقع أن ما نجد فى مكة وحول الحرم الآن بعد مضى قرابة سبعين عاماً لم تعد ترتبط بهذا المناخ الغربى أم لا ، وإنما أصبحت القضية التى تثيرها ، أن الخلط الشديد يفعل فعله فى كل شىء حول مكة ، وحول المناطق المقدسة فيها ، حتى إنه يستحيل كل شىء الآن إلى ألوان متباينة من شتى الألوان ، وأجناس مختلفة من شتى الأجناس ، وأشكال متنوعة من شتى الأشكال . .

إننا أمام الحرم المكى - على الأقل - أمام مهرجان من البيع والشراء وأجناس من البشر وأشياء متنافرة من البضائع وأناس تتعدد انتماءاتهم ، نائمون أو قاعدون ؛ مما يلفت النظر بشدة إلى العلاقة المتنافرة بين قدسية المكان وما يحدث فيه . .

وما يقال عن واجهة المبنى ، يمكن أن يقال فى بقية الأبواب الخلفية ، فقد تصادف ، ونحن نسعى بين الصفا والمروة أن أصيبت زوجتى بحالة من الإرهاق ، كادت تسلمها إلى حالة من الإغماء الذى لا يحمد عقباه ، فتركتهما عند أحد هذه

الأبواب الخلفية (باب بلال) ، وذهبت لشراء نوع ما من الأدوية ، فإذا بى أمام سوق آخر أضخم ، يهيمن عليه بائعون من شتى الأجناس ، خاصة ممن جاءوا من جنوب شرق آسيا .

وكادت دهشتى تشملل إلى الحالة الروحية ، التى كنت أعيش فيها لفجاجة السوق واختلاف المشارب وتنافر الأصناف التى تعرض . . لولا أن عودتى كانت سريعة ، فأعود إلى الصفا والمروة الطريق الذى جئت له أو من أجله .

فى الحرم :

أعود إلى الحرم ، حين دخلنا إلى الحرم لطواف القدوم ، كان على أن يكون أول من يقع عليه نظرى الكعبة ، وأحسست بالرهبة نفسها التى أحس بها كلما جئت إلى هذا المكان ، وقفت صامتاً لفترة ، تيقظت منها على يد زوجتى ، وهى تدفع بى لإجراء الطواف ، سبعة أشواط كان على قطعها هذه المرة بصفاء روحى خالص .

على أن أكثر ما لفت نظرى هذه المرة ليس (عنف) السود وهمجيتهم الشديدة ، وإسراعهم العنيف ، وإنما أخذ يلفت نظرى بحق أن أكثر الطائفين كانوا من جنوب شرق آسيا .

كان من السهل أن نقرأ فصولاً أو تقارير كاملة عن أخلاق أهل مكة أو المدينة فى كتب الرحالة ، غير أننا الآن لا نستطيع بسهولة العثور على هؤلاء وسط المحيط الإسلامى الآتى من المنطقة الآسيوية . .

لقد حاولت أن أبحث عن أجناس أخرى ، وفى دخيلتى أن يكون العرب أكثر الأجناس ، انطلاقاً من أن الأمة العربية يجب أن تسود فى هذا الموقف ، خاصة وقد استرجعت فى دخلى أن عبد الرحمن الكواكبي وهو يتحدث عن مؤتمر (أم القرى) ، كان أعضاء هذا المؤتمر اثنان وعشرين ممثلاً من شتى بلاد العالم (كلهم يحسنون العربية) ، رغم أن الشامى والقدسى والمصرى كان معهم الرومى والكردى والإنجليزى والصينى والقازانى . . إلخ .

كما تمنيت أن أجد الجنس العربى أكثر الأجناس الموجودة هنا ، وهو ما كان يعود للحس العربى المتمى إليه ، غيار أن ما لفت نظرى إليه بشدة أن الحاضرين كانوا - فى أغلبهم - من أجناس متباينة ، وأن العرب فيهم جنس لا يكاد يحدد لضالة تمثيله أو وجوده .

لقد لاحظت (من اللغة التى كانت تتراعى إلى ، والإشارات التى تعلق على الصدور ، واللافتات والعوائد الظاهرة . . إلخ) أن الحاضرين أكثرهم من الماليزيين وأهل بنجلاديش وإيران وتركيا والصين . . إلى غيرهم كثيرين . .

حين عاودت النظر فى هذه المسألة ، أدركت أن عدد المسلمين فى العالم يفوق بمراحل كثيرة عدد العرب ، وهو ما يتفق مع ما لفت نظرى إليه مراد هو فمان أيضاً من نظام الحصص التى كانت تحدد على كل دولة ، فنظراً لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل واحد على تأشيرة حج ، فإنه يترتب على هذا النظام - وليس من قبيل الصدفة أو التقصير قط - أن الغالبية هنا تكون من المسلمين .

صحيح أنه يمكن تغيير الأعداد لا الأجناس حسب تجاوز كل حصة نظراً لعدد القائمين فى السعودية - وأغلبهم من جنوب شرق آسيا - غير أن النسبة الأخيرة من عدد السكان المسلمين فى العالم ، هو الذى يحدد النسب الأخيرة السائدة الآن أمامى .

كان من الصعب أن أسمع - أثناء الطواف أو المعى - لدعاء عربى ، إنما كان فى الأغلب بلغة أردية أو هندوسية أو تركية أو حتى عربية مشوبة بأصول فهلوية (إيرانية) . .

وهذا لم يؤثر كثيراً فى انتمائى إلى الفكرة العربية ، وإنما زاد اقتناعى بأن قيام الوحدة العربية (وهو أمر صعب المنال الآن على المستوى السياسى) لن يمكن أن تقوم إلا بالتدرج فى الثقافة والاقتصاد ، ثم التدرج فى استخدام الوعى العربى - ثقافى أو اجتماعى - كخطوة من خطوات الإسراع إلى الوحدة الإسلامية بالشكل المحدد سلفاً . .

ومهما تكن الأشكال للتعامل مع الآخر (= الغرب) ، فإن الثابت أن تكون مقدمة التوحد الإسلامية الوعى بالفكرة العربية والعمل لها ؛ لتكون خطوة حيوية للتوحد العربى العام فى نسيج الوحدة الإسلامية . .

إننا ننظر إلى الوحدة العربية الآن أو نشير إليها فنحس بالغربة الشديدة لهذه الفكرة ، التى كانت قد وجدت أبلغ مثال لها بين عامى ١٩٥٨ - ١٩٦١ فى مصر ، ثم بدأت فى التوارى قليلاً قليلاً حتى جاءت حرب الخليج الثانية ١٩٩٠ - ١٩٩١ ؛ لتقضى على الفكرة بالشكل الفيدرالى . .

ومع تطور العالم فى التسعينيات ، وتحدد دور الشركات المتعددة الجنسيات والبنك والصندوق الدولى . . إلخ ، فإن وزارات الخارجية الغربية وأجهزة مخابراتها عادت إلى ترويج أفكار غربية خالصة عرفناها فى ضوء الكتب المكتوبة - والمصدرة إلينا- من مثل (صراع الحضارات) و (نهاية التاريخ) . . وما إلى ذلك .

هذا معناه أن الفكرة العربية لا بد أن تتم أولاً - على المستوى الثقافى - وألاً تغادر المجال العربى ، قبل أن نعاود العمل لتطويرها عبر فكرة يسرع بها أصحابها إلى الطريق الإسلامى .

رأيت مظاهر كثيرة لضيعة العالم الإسلامى بل العربى أمام الكعبة بدءاً من الأرض صعوداً للأدوار العليا سنصل إليها فى نهاية هذه الخواطر ، ومن ثم ، كان على أن أعيد تأكيد فكرتى الأساسية من ضرورة الوعى العربى ليطرز - فيما بعد - فى الوعى الإسلامى ، حين يدرك العالم الإسلامى أنه لا خلاص للإنسان العربى غير الانتماء لجهة واحدة إزاء هذا (الآخر) السياسى . .

وما أراه من ورع شديد وعبرة متناهية الفعل (وصف الرحالة الغربيين هذا بدقة شديدة وخاصة جوزيف بتس) يمكن أن يكون - إذا أحسن فهم واقعنا والعمل له - يمكن أن يوظف فى إطار الوعى بالكتلة العربية التى هى مركز الكتلة الإسلامية ، وأمامنا وهذا دروس طويلة يجب استيعابها بسرعة فائقة قبل أن يكمل الغرب التهامنا جميعاً - مسلمين أو عرباً - . .

استيقظت فى نهاية السعى ، تذكرت أننى أؤدى أول المناسك وأنا أرتدى ملابس الإحرام ، ومن ثم ، لا يجب أن أغرق كثيراً فى هذا الجدل الداخلى الصاخب فى الداخل (فلا جدال فى الحج) كما قال رسول الله ﷺ .

حاولت الخروج من السعى بعد النهاية ، وحاولت أن أسبح فى الزحام الهائل حيث تنتظر العربات ، وحاولت أن أمضى لأكمل بقية الشعائر .

قيل لنا إن الطريق بين مكة والمزدلفة لا يزيد عن عشر كيلومترات ، فإذا بنا - ونحن فى العربة التى تمضى فى بطء شديد بين رتل من العربات - لا نكاد نتحرك من فرط الزحام والتوقف كل ثانية ، والملايين التى تسعى الآن للوصول قبل غيرها إلى المزدلفة لتلمم الحصاة (الجمرات) - لترجم الشيطان فى منى . .

كان على أن أعانى فى عشرة كيلو مترات ما يقارب فى الزمن من عشرين ساعة أو أقل قليلاً . .

هل هذا ممكن !!

إنهم ضيوف الرحمن هذا العام كما تحددهم الإحصاءات الرسمية بما لا يقل عن ثلاثة ملايين . .

ثلاثة ملايين فى طريق يمضى بين جبلين . .

ويمضى فى بطء شديد شديد شديد . .

فلنكف عن الجدل . .

* * *

٦ - البكاء .. فى الحرم المكى

بكاء عدد كبير فى الحرم المكى . . .

لفت نظرى أن عدداً كبيراً من الوفود فى حالة بكاء شديدة فى الحرم المكى . .

حاولت أن أرقب هذه (الحالة) بهدوء . .

كانت حالة البكاء تنتاب من يدخل أى من الأبواب من يقترب من الحجر الأسود ، وقرب مقام إبراهيم ، وأثناء السعى بين الصفا والمروة . . وحتى بعد الخروج من الحرم مع جر السيقان المتعبة والقلوب الحزينة . . كان الوافد يأتى مسرعاً ، ولا تلبث أن تهدأ خطواته ، ويقف فى جانب أو يمضى لقضاء أحد المناسك ثم يقف فجأة ليدخل فى نوبة بكاء شديدة .

فى الأدوار العليا تحديداً وجدت هذا المشهد يتكرر : كان ينتهى هذا الشيخ من طوافه ليصعد ، ويتخذ موقفاً من أعلى ، شاخصاً إلى الكعبة المكرمة ، ويدخل فى حالة غيبوبة يهتز خلالها بهدوء ، فأدرك أنه دخل حالة أخرى من البكاء . يأخذ البكاء أشكالاً متعددة : الصوت الخفيض ثم الصوت الذى يعلو مع أصوات تعلو أكثر تدل على قسوة ما يعانیه ، ثم تزيد الدموع التى تنهمر بعنف . .

كانت الدموع تنداح فوق الحدود الصفراء أو الذقون السوداء . .

كان البعض يحمل مناديل بالية يضعها فوق العيون . .

وبالعوض الآخر لا يحس - لمجرد الحس - بأنه يبكى فلا تبدر عنه أية حركة . .

كانت النساء أكثر الأصوات علواً وأكثرها كتماً فى الأردية المميزة لنساء جنوب

شرق آسيا خاصة . .

كانت الدموع تمتد بين الأجناس من شتى بقاع الأرض : آسيا ، أوروبا ، أمريكا ، أفريقيا . . بين أبناء فلسطين (تسمى الآن إسرائيل) الذين جاءوا هذا العالم بالآلاف ، وأبناء بورما (تسمى الآن ميانمار) وأبناء الشيشان وطاجستان والباكستان والصين والهند وسيرلانكا وكشمير والأفغانستان وماليزيا . . إلخ (وأغلبها تسمى بأسماء أخرى الآن أو تنتمي لأقاليم صغيرة أو اقتطعت من الدولة الأم) .

كان يسهل على أن أكتشف أن هؤلاء يأتون من أنحاء العالم النامي المحزون ، المجزأ ، المذبوح ؛ فعمليات القتل تسمى فى كوسوفا (بالإبادة الجماعية) ، وتسمى فى الجزائر (بالجزارة) ، وتسمى فى أفغانستان (بالذبح وجع الأنوف) وتسمى فى . . إلخ .

ثم اكتشفت أن لدى - أنا أيضاً - من الأسباب ما يجعلنى أغيب فى بكاء طويل . . وتنفرط حبات الألم . . لماذا . . لماذا ؟
وتنفرط ظواهر الإذلال للسيطرة بشكل مخيف . .

« المباحث الضيدالية » :

إن موسم الحج هذه الأعوام غير أى مواسم أخرى ، لقد زيد على كل ما يعانى منه المسلمون فى كل أنحاء العالم هذه المراقبة التى كان يحس بها كل حاج ، وفى عديد من المطارات والموانئ العربية تحت ضغط أجهزة واشنطن .

لم تكن هى العيون اللامعة التى كانت تتصدر الحوائط العالية فى المطارات السعودية خشية من الاضطراب أو إحداث الفتنة فى داخل البلاد ، وإنما لأن قوى أمريكية طلبت ذلك ؛ فلبى أمرها على الفور ؛ بل وتوافرت لها إمكانات كثيرة لمراقبة هذا الموسم بحجج كثيرة .

عرفنا أن ذلك تم بزعم قوى المخابرات المركزية الأمريكية أن عدداً من القادة غير الظاهرين للإرهاب ، وأعاوناً لهم تواعدوا على لقاء فى مواقع الحج ومناسكه إلى آخر ما عرفناه خاصة ، بعد أحداث سبتمبر ، وفى موسم الحج التالى لهذه العاصفة . .

فى التوقيت نفسه الذى أعلن فيه عبر وكالات الأنباء ، وتسرب فى بعض الصحف (على سبيل المثال ، العربى ٦ / ٢ / ٢٠٠٢) أن عناصر من المخابرات الأمريكية « الإف . بى . آى » « المباحث الفيدرالية » تقوم الآن بالإشراف على الإجراءات الأمنية بمطارات مصر ، ضمن عدة إجراءات احترازية أمريكية ؛ تحسباً لعقد اجتماعات بين قيادات تنظيم القاعدة أثناء موسم الحج .

وأوضح مصدر مطلع أن أشد هذه الإجراءات سيكون بمطارات القاهرة والإسكندرية والأقصر ، التى تعتبر أهم نقاط « الترانزيت » للحجاج والمعتمرين القادمين من أوروبا ، خاصة دول ألمانيا وهولندا وإيطاليا والدانيمرك من أمريكا وكندا . . ودول أمريكا اللاتينية التى تعتقد أجهزة الأمن الغربية أن بها عشرات الخلايا النائمة المنتمة للقاعدة ، التى تزعم واشنطن أنها ستستغل موسم الحج للاجتماع ، وترتيب عمليات هجومية جديدة بعد الضربات الموجعة التى قتلت أو بعثت رؤوس التنظيم بأفغانستان . .

وتشمل الإجراءات قيام عناصر أمنية أمريكية بمراقبة الركاب الترانزيت ، قبل وأثناء موسم الحج ، عبر كاميرات الفيديو تتصل بمكتب « الإف . بى . آى » بالسفارة الأمريكية بالقاهرة ، والتى تضاعف عدد العاملين فيه بعد هجمات سبتمبر ، ويتنظر أن تنضم إليهم عناصر أخرى خلال أيام الحج القادمة لمتابعة عشرات آلاف من الحجاج ، وإرسال الأفلام والمعلومات إلى مركز رئيسه بواشنطن لمراجعتها وتحليلها .

كما تشمل الإجراءات موافاة واشنطن بكشوف كاملة لحجاج ومعتمرى الترانزيت ؛ لتضاف إلى التزام عربى سابق بموافاة واشنطن بأسماء وصور المسافرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ وأيضاً تسلم كشوف بأسماء المسافرين بحراً هكذا قيل ؛ والقول معناه أمر فى صيغة طلب لى بسرعة فائقة . .

حدثت نفسى ، لقد وصلت عيون واشنطن الآن ؛ حتى ؛ إلى داخل الحرم المكى . .

تدخلت دواعى الأمن وتوابع (عسكرية العولمة) ومراحلها التالية داخل الحرم . .
هل هذا معقول . . ؟

الكوكا - صهيونية :

هذه هي شركة كوكاكولا تزعم أن علاقاتها بإسرائيل غير حقيقية ، وراحت تصدر بياناً في بداية العام الماضي - تتواصل معه - حتى بداية هذا العام - تنفى الاتهام ضدها ؛ فقد بدا أن الحملة الإعلانية التى تقوم بها الشركة عبر حملة إعلانية سابقة لزيادة منتجاتها ، وترويج بضاعتها التى وجدتها منذ الوصول إلى مطار جدة الدولي ، مروراً بأحياء مكة القديمة - صعوداً إلى كثير من مناطق المملكة الأخرى .

ومازالت الشركة توالى حملاتها من (دبی) إلى المملكة إلى أنحاء العالم الإسلامى كله ، لدرء شبهة الوقوف إلى جانب القوى اليهودية (وهى حقيقة وليست شبهة ..) .

(العسكرية) .. التالية :

بدأت مرحلة تالية من (عمكرة الحرب) بعد حملة أفغانستان ، تمثلت فى عديد من الإجراءات ، منها :

- (أ) تجميد أرصدة مؤسسات إسلامية كثيرة بتهمة الإرهاب .
- (ب) تجميد عديد من (الجمعيات الخيرية) الإسلامية فى عديد من بلدان العالم العربى .
- (ج) إعادة النظر فى برامج التعليم .. إلخ .

الدجاج والخراف :

على أن الذى يبكى أكثر ليس هو الخطر الخارجى فقط ، وإنما هو الخطر الداخلى ، أيضاً الدجاج والخراف : أثناء الوقوف طويلاً فى الحرم المكى قبل الصعود إلى عرفات أو بعد العودة منه ، كانت تتناهى إلى أسماعنا قضايا غربية ، أو هى قضايا وهمية فى عصر ، تتربص بنا فيه أغلب أقطار الشمال ..

يفتى فى تركيا بأن المسلمين الأتراك يمكن أن يستبدلوا بالخراف الدجاج لذبحه ؟ لماذا ؟ يضيف البيان بسبب الأزمة الاقتصادية والمالية ، بل يتم هذا خلال إفتاء معلن فى

أنقرة بأن الدجاج يقوم بالدور نفسه الذى أدته الخراف على مدى الأعوام الماضية ، نقرأ بالحرف الواحد هنا : تستطيع أن تمنح الفقراء دجاجة ، أو تستطيع أن تمنح أحد الفقراء ١٠ ملايين ليرة عوضاً عن لحم الخراف .

وبينما يغضب الإفتاء السعودى ، تتبنى جبهة علماء الأزهر فى مصر فتوיד الفتوى التركية ، ويعارض بعض العلماء بشكل غير رسمى ويؤيد البعض الآخر : يحيا الدجاج بدلاً من الخراف ، بل نريد (ولو) درهماً من الخراف بدلاً من الدجاج . . . وتتعالى الأصوات هنا وهناك .
البعض يؤيد والبعض يرفض . . .

- تشتعل الصحف فى عديد من العواصم ، ويعم اللغط : الدجاجة أم الخروف . . . ويشغل المسلمون فى أيام الحج والعمرة بمثل هذا الجدل البيزنطى أيهما أولاً : الدجاجة أم الفرخة ؟

إننا الآن أمام الدجاجة أم الخروف . . !!

إنها صورة الهدى فى الزيارة بالصورة الجديدة . . صورة نراها لأول مرة .

القلعة والأوثان :

تعلن المملكة السعودية أن (قلعة جياد دمرت قبل حوالى أسبوع والجرافات مازالت تعمل فى الموقع) ، وعلى الفور تغضب تركيا ، تقدم احتجاجاً لمنظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (يونسكو) على تدمير القلعة . الصحف التركية تشتعل أكثر ، نقرأ من يؤكد أن هذا القرار يمكن مقارنته بحركة طالبان بتدمير التماثيل البوذية فى أفغانستان .

تعلن (اليونسكو) أن الأمر لا يهمها ؛ فالقلعة ليست مدرجة ضمن لائحتها للتراث العالمى ، وتستدرك ، لكنها لا تتبعد ذلك بشرط أن يكون بعد إجراء تحقيقات فى المكان .

تعود الكرة إلى المملكة ؛ فتعلن رفضها لاحتجاجات تركيا على إزالة قلعة جياد فى مكة المكرمة . . حين تغضب تركيا أكثر . . . تعود المملكة لتعلن :

- (إن القلعة ليست مقدسة)

ثم إنها شأن يخص سيادة المملكة . .

ثم إنها تخص العرب أو المسلمين هنا . .

ونعرف أن الصحف السعودية والتركية ، وتشاركهما صحف عربية أخرى كثيرة ،

تسهم فى المعركة العاصفة ؛ من أجل صعوبة الإجابة عن السؤال الأزلئ :

تدمر القلعة أم لا تدمر ؟

التدمير أولاً أم التعاون والاستجابة للطرف الآخر . .

نحسب المتسارعين إلى هدم القلعة أو البقاء عليها فى عداد التخبط حين تشبه القلعة بتمثال بوذا ؛ تشتعل البلاد العربية ، ومعها الإسلامية هذه المرة أيضاً حول سؤال مصيرى متصل بالموت أو الحياة . . فى شكال سؤال :

- القلعة أو الأوثان ؟!

يسود الصمت ، انظر داخل الحرم المكى . .

أعاود النظر إلى خريطة العالم الإسلامى . . ألمح عدداً كبيراً من الزائرين يكونون دون صوت ، سريان الدموع فقط لها أصوات عالية أو ليس لها أصوات عالية .

تنقل وكالات الأنباء أنه كثير من الحجيج أجهدش فى البكاء فى أكثر من موضع فى الحرم المكى ؛ خاصة المكان الذى ألقى فيه الرسول ﷺ خطبة الوداع .

وصلت دموعى أنا أيضاً ، اكتشفت أننى كل هذا الوقت كنت أقف أمام الكعبة . .

أنظر إليها ، أصمت ويخيل إلى أننى أصمت أيضاً . .

اكتشفت أننى أسمع صوت البكاء يعلو ويعلو ويعلو . . .

* * *

٧ - الرحلة إلى جسر الجمرات

(ألا يمكننا القول أن الإحرام يشير إلى الموت ؟
 وأن الطواف يسلم المرء إلى الله ؟
 والمعنى .. أليس المعنى إرهاقاً وتعَباً ؟
 أليست زمزم هى الحياة والكينونة ؟
 ويوم عرفة .. ألا يجعلنا نتوقع يوم القيامة ؟
 والمزدلفة .. أليست هى الظلام الذى يسبق اليوم
 الجديد ؟
 ومنى .. ألا تمثل الوفاء من خلال نحر الأضحية ؟
 وخلع الملبس الإحرام بمنى .. ألا يعنى حياة جديدة ؟
 ورمى الجمرات .. ألا يرمز لكفاح مدى الحياة ضد
 كل ما هو شر ؟
 ولكن الله هو محور الحياة ..)

(هوفمان - الرحلة إلى الله)

وبدأت الرحلة إلى جسر الجمرات ..

فى البداية ، اتجهنا للتجمع .

كان هذا مساء السبت الموافق الثامن من ذى الحجة من عام ١٢٤١ (٣ مارس ٢٠٠١) ..

كان التجمع قد بدأت كثافته فى المساء ، ولم تتحرك العربات قبل منتصف الليل .

اتجهنا إلى مكة لنبدأ مناسكنا وقد ابتدأ يوم ٤ من ذى الحجة ، وكان يوم سبت ،
 وبمجرد وصولنا هبطنا جميعاً ، وقبل أن نبدأ هذه المناسك فى مكة ، اتفقنا على مكان
 محدد نعود إليه بعد التفرق ..

ذهبنا ونحن نفتق أثر الرسول - ﷺ - فهبطنا إلى الكعبة ، وقمنا بالطواف ونحن ندعو ونحن نكرر كثيراً عبارة « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ثم قرأت بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) وبعد الطواف ، ثم قرب مقام إبراهيم عليه السلام صلينا ركعتين ، ولم نلبث أن سعدنا إلى الصفا والمروة ، ونحن نتلو آيات من القرآن الكريم وأكثرنا من الدعاء والاستغفار ، وكنا في حالة روحانية شديدة ، ولاحظت أن زوجتي كانت أكثر منى وجداً ودعاءً ، ولكن كثيراً ما كان صوتها يعلو بشدة ولوعة شديدين ، وكنت أهدأ من روعها من أن لآخر .

غادرنا مكة في زحام شديد ، وكأنه يوم الهول .

كانت الصحف تردد أن أكثر من ثلاثة ملايين يؤدون الفريضة هذا العام ، ومضى وقت طويل من الليل ، قبل أن نعود إلى العربات لمواصلة الرحلة . وطيلة الطريق كان جموع الحجيج يلبون . . لبيك اللهم لبيك . . حتى وصلنا إلى عرفات .

وفي عرفات وصلنا مع طلوع الفجر ، فصلينا في الخيام المخصصة لنا ؛ وحاولنا أخذ وقت قصير من الراحة ، وما لبثنا أن استغرقتنا في الصلاة والدعاء وقراءة القرآن ، وصلينا الظهر والعصر قصراً ، وأخذنا نلبي من جديد . . لبيك اللهم لبيك . وتصادف أن هطلت الأمطار في وقت بلغت فيه درجة الحرارة ٤٢ درجة ، وكانت الشمس مع ذلك تشير إلى أن وقت الظهر وقت اشتداد الحرارة إلى أقصاها .

كانت الظاهرة اللافتة لنا : أن ترتفع درجة الحرارة وتهطل الأمطار . . وفي هذا الوقت بدأت أمواج الحجاج تتدفق إلى خارج الخيام للدعاء مع سقوط الأمطار الشديدة ، فقد كانت هذه الظاهرة نذير تفاؤل وفرح للكثيرين .

ومع توالي هطول الأمطار وخروج الحجاج ، كان كثير منهم يتجهون إلى جبل عرفات ، فيدعون بالمغفرة . .

ولاحظنا أن هناك عدداً كبيراً من العربات ، التي تنتمي إلى الجهات الأميرية تحمل الكثير من المثلجات والمياه والأطعمة .

وكان ذلك هو يوم التروية كما يطلقون عليه .

ويوم التروية نجد له تعريفات كثيرة في كتب التراث ، فقد سمي بذلك لأن الحجاج كانوا يترون من الماء فيه ما يعدونه ليوم عرفة ، ويشير صاحب (المغنى) أنه سمي بذلك لأن إبراهيم عليه السلام رأى ليلاً في المنام ذبح ابنه ، فأصبح يروى في نفسه : أهو حلم أو من الله تعالى ؟

فسمي يوم التروية ، فلما كانت ليلة عرفة ، رأى ذلك أيضاً فعرف أنه من الله تعالى ، فسمي يوم عرفة .

هكذا قيل لنا من حاولنا الفهم منه . .

وأذكر أنني ما إن وصلت إلى عرفات حتى تذكرت أن رسول الله - ﷺ - وهو ينادى في الناس - فحمد الله وأثنى عليه - وقال خطبته المشهورة . .

خطبة الوداع :

ولأهمية خطبة الرسول هنا ، وما تحتويه من قيم ومعان في غاية الأهمية ، خاصة أنه أطلق عليها خطبة الوداع ، فقد أثرنا إثباتها هنا للتأمل والتروح ، قبل أن نتكمل الرحلة الشاقة بكل المقاييس .

خطب الرسول ، فقال :

« أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم .. وقد بلغت .. فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلي من أئتمنه عليها ، وإن كان ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .. قضى الله أنه لا ربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع . وأن أول دمانكم أضع دم ابن أبي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان ينس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فسيما سوى ذلك فقد رضى به .. مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسي زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

وان الزمان استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عندنا اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات (ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم) ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس فإن لكم علي نساكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح .. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .

اعقلوا أيها الناس قولى ، فإننى قد بلغت .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيننا كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه .. إن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت .

هل لاحظنا كل هذه القيم الدينية المتينة فى خطبة الرسول - ﷺ - .

وفى هذا اليوم الذى نقلتنا فيه العربات - بعد الزوال - فى طريقنا إلى المزدلفة .

وأكثر ما يلفت النظر فى الطريق ، أن هذه المسافة الصغيرة إلى المزدلفة وهى لا تتعدى فى الأحوال العادية ساعة ونصف ، قطعناها فى أكثر من أربع عشرة ساعة فى عربة قديمة أكثرها من النساء .

أذكر من الأشياء التى عانينا منها فى هذا الطريق الشاق نقص المياه ، الذى أثر كثيراً على بعض الأطفال الذين صحبونا فى الطريق ، وكثيراً ما توقفتنا لتوقف الطريق تماماً ، ولم يكن فى اليمين أو اليسار غير الجبال التى تحيط بنا ، وكدنا لا نرى شيئاً قط

فى هذا الظلام الدامس ، اللهم إلا فى ضوء كشافات العربات ، الذى يظهر ويختفى كل شئ ، وقد تكرر هذا الساعات طوال .

هبطنا فى الطريق بالمزدلفة لنصلى المغرب والعشاء جمع تأخير قصرًا ، وقمنا فى الوقت نفسه بجمع الحصوات (٤٩ حصة) .

وإن أنس فلا أنسى هذا المشهد الذى أشرت إليه ؛ إذ كانت العربة لا تكاد تمضى عدة أمتار حتى تتوقف ، وتمضى عدة أمتار لتمهل ، ثم تتوقف ، كان الملايين من البشر يمشون فى طريق واحد وقصد واحد ، وكان الزحام المهول والعربات الضخمة من الناحيتين والظلام الدامس من كل ناحية ، يحول بين العربة السير لفترة صغيرة من الزمن . .

كان الطريق طويلًا ، مظلمًا كثيفًا بالعربات ، والحاصل أن مشقة التمهّل والتوقف من آن لآخر ، أخرجت أكثر المسافرين عن صوابهم ، كما أسلفنا . .

وقد أسلم هذه الرحلة زوجتى إلى ما يشبه الإغماء ، وقد كان الضغط قد هبط إلى أدنى درجة لديها ، فلم تستطع المقاومة ، وكادت تطرح أرضًا حتى تداركتها رحمة الله وقمنا بمساعدتها ، فطرحنا على المقعد الأمامى على الظهر ، مع رفع الرأس إلى أعلى ليصعد الدم إلى أعلى الرأس ، وقد كان من حسن الحظ أن كان معنا فى العربة طبيب ، فأشرف على الحالة بشكل سريع . .

كانت الحالة من الصعوبة بحيث توازى إيماننا العالى ، مع رعبنا الشديد من الخوف ؛ لئلا تودى هذه الحالة بها إلى ما لا تحمد عقباه .

لتمهل أكثر - إذا - عند المزدلفة . .

انتظرنا حتى إذا ما عبرنا المزدلفة ، قمنا بصلاة المغرب والعشاء (جمعًا وقصرًا بأذان واحد وإقامتين) ، ومكثنا حتى صلينا الفجر .

وكنتم قد قمت بسرعة بجمع الحصوات من أمام هذا الجبل المرتفع ، وفى جنح الظلام قبل أن تشرق الشمس ، وكنتم أستعين على العثور على هذه الحصوات بأنوار جرارات ضخمة ، كانت تعمل فى هذه الجبال الشاهقة وعربات ضخمة ، لم أر مثلها من قبل . .

حديث الشيطان :

أذكر أن السرعة التي فعلنا فيها كل ذلك ، دفعت بى إلى الهرولة بين جمع الحصوات والسرعة فى الوضوء من عربة تحت الخطى بعيداً عنا ، وكان على أن أتذكر جيداً أن الحصوات لا بد أن تلقى على الشيطان ، وأنا أحرص - كما قيل لنا - أن تكون الكعبة على اليسار ، ومنى على اليمين .

حدثت نفسى فى صمت : أى شيطان هذا ؟

وأين هو هذا الشيطان ؟ استعذت بالله ، وأنا أخفى وجهى عن هذا السؤال الحائر فى عصر تحاصرنا شياطين كثيرة :

- هل هو شيطان الكتب الدينية التى عرفناها منذ ولدنا ؟
- هل هو شيطان الشللية والفساد الذى أصبح يسيطر على مساحات شاسعة من عقول عرب اليوم ؟

- أم هو إلى جانب شيطان العقيدة وشيطان الذات هو شيطان الآخر ؟
وبشكل آخر ، هل هو شيطان العم سام الذى يحاصرنا من كل مكان اليوم ؟
- أى شيطان يجب أن نرجمه اليوم ؟

ظلمت أستعرض عدداً كبيراً من الشياطين التى نقوم برجمها الآن - بالرمز - لكننى ، بأمانة شديدة اكتشفت أننى أرجم شيطان الداخل ؟ شيطان الذات ؟ الشيطان الذى يعمل فىنا - ومننا - الشيطان الذى يجعلنا نظلم أنفسنا ومن هنا ، فإنه يعمل للقوى الخارجية التى تتربص بنا ، وتكاد تهيمن الآن على إرادتنا ومقدراتنا ، ولكنه يظل دائماً هو الظالم بيننا وبنا . .

فلنرجى حديث الشيطان فيما بعد . . .

* * *

. . وبعد ، نواصل الآن رحلتنا إلى البيت العتيق . .

ومهما يكن ، تذكرت هنا ، أمام هذه الجبال الشاهقة رواية ، ترددها الكثير من كتب الفقه دون سند قوى ، بل دون إجماع عليها ، ففى رواية نجدها فى عديد من كتب السلف تروى قصة تؤثر أن نثبتها هنا لأهميتها .

وتقول القصة التي تذكرها كتب التراث أن الرسول دعا لأمتة عشية عرفة بالمغفرة ، فأجيب إنى قد غفرت لهم ، ما خلا المظالم ، فإنى آخذ المظلوم منه .

قال : أى رب ، إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة وغفرت للظالم ، فلم يجب عشية ، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء ، فأجيب إلى ما سأل ، فضحك رسول الله ، أو قال : تبسم .

فقال أبو بكر وعمر : بأبى أنت وأمى ، إن هذه لساعة ، ما كنت تضحك فيها ، فما الذى أضحكك ، أضحك الله سنك ؟

قال : « إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائى وغفر لأمتى ، أخذ التراب وأخذ يحثوه على رأسه ، ويدعو بالويل والثبور فأضحكنى ما رأيت من جزعه » .
تتهى هنا القصة التي تنسب للرسول ، ولا ينتهى ما تشيره من حيرة . .
بلا شك لا نرى أن الرسول قد جاء بذلك ، فهو يتناقض تماماً مع عدل العقيدة ، ومبادئ الدين الحنيف ؛ فضلاً عن أننى حين شغلت طويلاً بمثل هذا الكلام ، الذى جاء فى كتاب المساك مرة . . وجدت معارضاً له لأكثر من مرة (انظر على سبيل المثال : مصباح الزجاجاة للبوصيرى فى زوائد ابن ماجة : أحمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايمايز بن عثمان بن عمر الكنانى شهاب الدين البوصيرى - ٧٦٢ ، ٨٤٠هـ - دار الكتب العربية ، بيروت - لبنان) .

وأعذر عن إيراد كل هذا المصدر الطويل ، فالبوصيرى أنكره ووصفه بأنه « إسناد ضعيف » ، وقد رواه الإمام مالك بسند صحيح على هذا النحو ، فقد قال الرسول - ﷺ - : « ما روى الشيطان يوماً هو أصغر ولا أحر ولا أحقر ولا أغىظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام » (عن كتاب الترغيب والترهيب للإمام المنذرى) .

ولا نريد أن ندلل على ذلك بذكر كثير من الروايات ؛ فالخطاب العام لهذه الحكاية غير منطقي ، فضلاً عن أنه يتعارض مع مبادئ الدين الحنيف ، الذى به كثير من الآيات التى تؤكد مصير الظالم ونهاية المستبد .

غير أن أكثر ما يلاحظ هنا كثرة التأويلات لعدد من مناسك الحج ، وهى تأويلات تؤكد الخلافات الشاسعة بين عدد هائل من المفسرين والمجتهدين فى الدين الخفيف ، بل نعجب أن الخلافات تصل للأئمة الكبار . . للأئمة الأربعة ، كما نرى من الكشف المرفق هنا . .

وفى صباح اليوم التالى وصلنا إلى منى . .

فى منى :

على أية حال . . فقد لفت نظرى المنطقة الجبلية . .

ففى « منى » وجدت منطقة تحيطها الجبال من كل ناحية ، لا يكاد يخلو مكان فيها من الخيام ، وتقدر الخيام فيها بأربعين ألفاً ، وهى مكيفة ومقاومة للحريق . . المعروف أن المبيت فى منى ضرورة أقرها الدين ، حيث تسمى هذه الفترة بمنى أيام التشريق ، تيمناً بقول الرسول ﷺ : « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله » . . أى عشنا فترة عادية من تكرار العبادة وكثرة التكبير والتهليل بعد الصلاة خاصة . . ولنعد الخطو أكثر إلى منى . .

« المفترشون » و..

وصلنا إلى منى أخيراً . . يبدو علينا الإرهاق الشديد ، الذى قطعناه بين مكة والمزدلفة . . كان الطريق رغم ضراوة السيارات أقل كثافة وأكثر اتساعاً . . فى المساء كنا ندلف إلى جبال منى . .

وهبطنا - مرة أخرى - إلى مخيمات جديدة وسجاجيد جديدة وأرض قاسية متعرجة ، رغم الجهود الكبرى التى تبذل فى مناطق أخرى ، ولحجاج آخرين أكثر راحة ورعاية .

لفت نظرى أن المكان الذى كنا نقيم فيه كان مكاناً كله جفاف ، الأرض حصباء ، والجبال شديدة السواد شديدة الارتفاع .

وفى أول أيام التشريق ، كان علينا أن نتأهب لرمى الجمرة الأولى (الصغرى) ، وما لاحظته أيضاً فى هذا الطريق الطويل الممتد ، حيث سادت فيه ظاهرة (المفترشين) ،

والمفترشون هم قوم من الفقراء والمعوزين ، تركوا مساكنهم الفقيرة إلى الأرض ، وفضلوا العيش فيها ، وزادت أعدادهم حتى وصلت في السنوات الأخيرة إلى نسبة حددتها السلطات السعودية بما يوازي ٢١ في المائة من إجمالي عدد الواقفين في عرفات فقط . . .

كان جماعة من البشر يبيتون في فنادق عادية ، والأغلبية تعيش على الأرض حول المسجد الحرام ، وهو منظر يمتد من مكة . في حين أن مناطق الثراء كانت تصل إلى درجة مفزعة ؛ خاصة سلسلة الفنادق الضخمة . . إلى درجة أفزعني كثيراً ، فقد قدر لي أن أزور شقيق زوجتي هناك . . فوصل بي العجب إلى مداه ، فالحج (الخمس نجوم) التي كنا نسمع عنه يقل ويتضاءل أمام ما أرى

لم أستطع أن أحدد رأياً فيما أرى وقتها ، ولكنني أرجأت التأمل فيه فيما بعد . . .

عدت إلى (الحالة) الروحية التي أعيش فيها . .

جسر الجمرات :

وبدأنا الاستعداد لرمي الجمرات ، وقيل لنا إنه يجب أن يتم ذلك في وقت معين ؛ أي لا يجوز الرمي قبل الزوال ، مقتفين بما فعل الرسول .

كنت - حسب المتبع - أتوجه إلى جسر الجمرات أو إلى الجمار - كما كان يطلق عليه - بعد وقت الزوال و/ أو إلى قضاء المناسك المعروفة هنا . . كنت أبدأ بالجمرة الصغرى التي تلى مسجد الخيف ، وأرمي بسبع حصيات واحدة بعد واحدة ، وكنت كل مرة أقول : الله أكبر ، وأستقبل القبلة ، وأرفع يدي بالدعاء بقدر قراءة سورة البقرة ؛ أي الدعاء لفترة طويلة . .

كنت أرمي - أيضاً - الجمرة الوسطى . . أيضاً وأستقبل القبلة ، رافعاً يدي بالدعاء قريباً من المنطقة التي سبق أن وقفت فيها . .

ثم كنت أرمي - كذلك - جمرة العقبة بسبع حصيات ، فأجعل البيت عن يساري ، ومنى عن يميني . .

فعلت ذلك أكثر من يوم بشكل متوال . .

كنت أخرج كل يوم وأسير طويلاً لرمي الجمرات ، رغم أن المسافة حيث كنا نقيم وجسر الجمرات كانت بعيدة ، كنت كل يوم أسير ذهاباً وإياباً لأنظر وأنفحص في الذهاب والمجيء . . كان طريق المشاة من جسر الجمرات إلى آخره يزخر بصنوف من البشر ، يمكن أن يتموا إلى كل أجناس الأرض ، ليس من يقومون بفريضة الحج وحسب ، وإنما - وهو أكثر لفتاً للنظر - تلك الكثافة التي لم أرها في يوم ما من البائعين على ناحيتي الطريق .

بائعون من كل أجناس الأرض - ربما يميز الغالبية فيهم من الأفارقة السود وبشر من جنوب شرق آسيا ، بيد أننا لا نستطيع أن ننسى جنساً ما من أجناس الأرض إلا ونجده هنا ، في الوقت نفسه كانوا يفترون الأرض في الغالب لبيعوا كل شيء . .

كل ما يخطر على البال من شتى أنواع السلع : البوصلة والمجاد والسبح والدوارق المزركشة والتمور والمكاوى والمصاحف والبطاريات ، وعديد من الأحجار الكريمة واللوحات القرآنية والأثواب البيضاء ، وعشرات من أنواع التحف . . إلى غير ذلك .

وكنا نلاحظ أن التحف قليلة الثمن كانت توجد بين أيدي الجنسيات الآسيوية من جنوب شرق آسيا ، أما الآلات التي كانت ترتفع قيمتها كالأجهزة المكيفة وآلات التصوير وماكينات الحلاقة الحديثة . . إلخ ، كانت توجد بين أيدي أخصائيين أكثر فهماً كهؤلاء الروسين أو الروسيات من المسلمين النجباء ، الذين جاءوا هنا - ضمن مناطق أخرى - عقب سقوط الاتحاد السوفيتي أو مع بعض الحجاج الروس ، الذين جاءوا ومعهم أجهزة كالراديو وماكينات الحلاقة والمناظير . . إلخ ، أيضاً شارك عدد من الحجاج الإيرانيين ببضائعهم المميزة كالفتق الإيراني والمن والسلوى . . إلى غير ذلك .

والغريب أننا لم نجد شيئاً من البضائع العربية أو المصرية بوجه خاص .

صحيح أن هذا الطريق كان يحيط به من الجانبين وسائل كثيرة من حنفيات المياه المعدة خصيصاً لمقاومة هذه الدرجة العالية من الحرارة (كانت عربات المبرة الحكومية

توزع على السائرين فى مناطق المشاعر المقدسة وبعض النقاط المياه) ، وبعض المظلات هنا وهناك ، غير أن السمة العامة كانت هذه الكثافة الرهيبة من الناس والبضائع . هذه الكثافة العالية فى البشر العدد والحركة والتدافع والعنف بشكل يلفت النظر حقاً .

الجمرات والموبايل :

صحيح أننا كنا فى الأراضى المقدسة ، وهذا المناخ الشعب بالعقيدة من ذهاب ومجىء البشر ، الذين يسعون أو يعودون من جسر الجمرات . غير أن الأمر كان أحياناً يخرج عن هذه الروح الدينية الخالصة .

فكثيراً ما كان المرء يلاحظ كثيراً من ألوان السلوك الخاطئة ، سواء من بين الحجاج فى الطواف والسعى ثم هنا فى رمى الجمرات ، بل إن الجهات المسؤولة سجلت فى العام الأخير ٢٠٠٢ أن جسر الجمرات لم يكن يتلقى الحصى فقط - كما هو معروف فى العقيدة الدينية - بل لاحظ عمال النظافة فى كل مرة يقومون بالتنظيف . . إن الذين جاءوا ليلقوا بالجمرات لم يكتفوا بالحصى فقط ، وإنما ألقوا بأجهزة (الموبايل) ، وبما يرتديه الحاج فى ساقه ، وبكثير من الأدوات التى ليس لها أية علاقة بالحصى فقط ، وهذه ظاهرة كانت تشيع بين الحجاج ، وتشيع شبيهاً لها - مع اختلاف الأداة - فى سلوك البائعين المنتشرين بكثافة هنا .

رغم الرقابة ، فإن الأمر لم يكن ليخلو من أن يقوم أصحاب المتاجر أو المتناثرين فى الطرق باستغلال مراقبى وزارة التجارة فيزيدوا الأسعار . . وزيادة الأسعار لم تكن تظهر فقط فى أنواع البضائع الكثيرة وحسب ، وإنما كانت تمتد إلى المياه والمشروبات الغازية . .

كان المنظر لا يوحى بالعقيدة قط أكثر مما يوحى بآلاف المسلمين المعدمين من شتى أنحاء العالم الإسلامى ، الذين جاءوا إلى هنا بطريق شرعى أو غير شرعى بحثاً عن الرزق .

أيضاً ، كان من السهل أن نرصد ظاهرة أخرى لافتة ، وهى تتمثل فى الأعداد الكبيرة للمتولين فى هذا الموسم ، وهى أعداد تنتمى أيضاً إلى كل الجنسيات ، كما يغلب على أصحابها عدد كبير من المعوقين ، ممن يلقون فى الأرض بشكل مزر ولا يكفون عن التوسل .

بل امتدت الظاهرة من الطريق العام الذى يؤدى إلى الجسر . . إلى الانتشار داخل المخيمات ، فقد كان يتم الانتشار داخل المخيمات نفسها من المتسولين الأصحاء ومن ذوى العاهات أيضاً .

ولا أعرف كيف تسمح الحكومة السعودية بترك كل هذه المجموعات الضخمة من التجار والمتسولين والجشعين على هذا النحو ؟

وأذكر أننى حين أسريت بهذا الخاطر إلى رفيق لى :

- كيف تترك الحكومة هنا كل هذا الزخم ؟

أجاب على الفور :

- وهل تستطيع الحكومة شيئاً أمام يوم الهول ؟

والإطار العام كان يشئ بالمزيد لمن أراد التوسل إليه ، وأقصد به أن ما نراه كان يشئ بالكثير الكثير مما كنا لا نراه . .

غير محاولة التفسير لها مكان آخر . .

عن الحج :

كنت طيلة الفترة التى قضيتها فى عرفات ، أنتهز وقت الفراغ من الدعاء والعبادة . . وما إلى ذلك من أنواع المناسك ، فأغرق فى قراءة القرآن الكريم من (مصحف) صغير الحجم هائل القيمة . مكتوباً بخط عثمانى بديع ، ومزيلاً بمعجم ضاف ، على جانب كبير من الأهمية ، أستعيض به عن التفسير والتأمل ، وأستفيد فيه بكثير من درجات الرصد الموحية والدالة .

وقد لاحظت أننى كنت كثيراً ما أستغرق مع هذا المعجم المهم فى التأمل ، وكتابة ما يربط بين المعانى والدلالات بشكل عصى ، وقد أفدت كثيراً به ، وأشهد أننى

أفدت كثيراً بذلك ، كما كنت أصطحب كتاب مراد هوفمان (الطريق إلى مكة) ،
الذى نشر قرب منتصف التسعينيات من القرن الماضي .

وقد استفدت كذلك - إلى حد كبير - بالفصول الأولى من هذا الكتاب خاصة .
ومهما يكن ، فقد كان على أن أعود في المرة الأخيرة من جسر الجمرات ؛ لأسرع
إلى العربات ، ونتجه إلى مكة بعد منتصف النهار .

كان علينا أن نسرع في وقت بدا - على عكس المناخ في مثل هذا الوقت من كل
عام - صحواً ممطراً عذباً - . .

وكان أكثر ما يلفت النظر في طريق العودة سهولة الطريق على العكس من مشقات
الذهاب ، فقد مضت العربية بنا في جو صحو ، مشبع بنسمات رضوانية بديعة تحيي
النفوس وتبعث الطمأنينة والسلام في قلوبنا جميعاً أثناء العودة . . وكان المنظر العام
يوحى بهذه السكينة الروحية ، فعدد من العربات كانت مكشوفة ، وكانت الأمطار
المستمرة الندية تبعث برياح الاطمئنان في النفوس . .

كانت السكينة أكثر ما ميز الوجوه والنفوس في هذا اليوم . .

وتبدأ رحلة الوداع . . لنصل إلى المسجد الحرام ؛ فنقوم بطواف الإفاضة وطواف
الوداع معاً ؛ وما أذكره جيداً أننا ما كنا نعود إلى الحرم وندلف إلى رحابه ، حتى نعود
إلى جموع الحجاج ، يوالون الطواف حول الكعبة حيث كانت الأمطار مازالت
مستمرة ، وكأنها تقوم بعملها الدؤوب في تطهير قلوبهم مما شابها ، قبل أن يأتوا
إليها . .

وبدأنا الطواف . .

وبدأنا - بعد ذلك مباشرة - في رحلة العودة . .

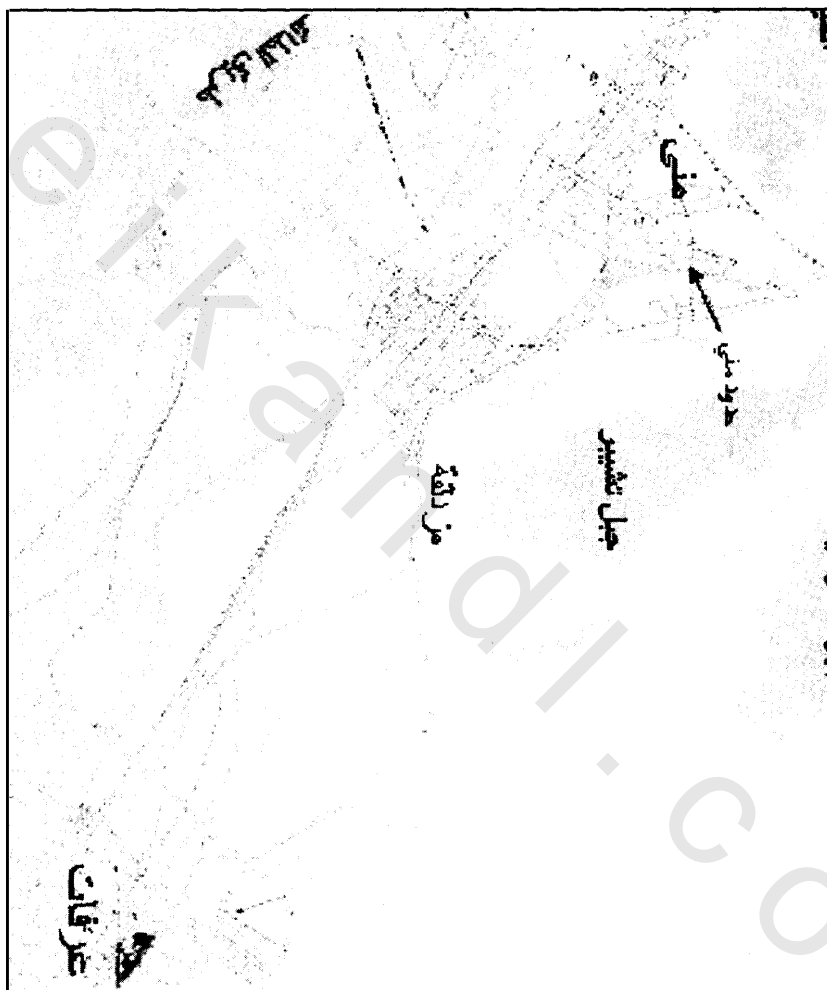
تركنا البيت الحرام ، ونحن نأسى لذهابنا عنه ، وندعو الله - عز وجل - أن يتقبل
منا ، ويغفر لنا ؛ ونحن ندعو للعودة إليه مرة أخرى .

* * *

عدنا إلى الفندق فجراً ؛ وحملنا أمتعتنا على عجل ، واتجهنا إلى المطار .

* * *





[illegible]